الدِّلَالَاتُ وَالأَبْعَادُ الحَضَارِيَّةُ فِي مُقَدِّمَةِ كِتَابِ (الذَّخِيرَةِ) لِابْنِ بَسَّامٍ الشَّنْتَرِينِيّ

مُحَمَّد فَيْصَل *

تاريخ الاستلام: 2020/12/03 تاريخ القبول: 2020/12/24

https://doi.org/10.51405/19.1.8

ملخّص

شَهِدَتِ الأَنْدَلُسُ تَقَدُّمًا فِي العُلُومِ وَالفُنُونِ وَالعُمْرَانِ وَالنَّوَاحِي الأَدَبِيَّةِ وَالاقْتِصَادِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ؛ مِمَّا دَفَعَ الكَثِيرَ مِنَ العُلَمَاءِ وَالأُدَبَاءِ أَنْ يَذْكُرُوا مَحَاسِنَ هَذِهِ الحَضَارَةِ، وَيَحْفَظُوهَا لِلْأَجْيَالِ المُتَعَاقِبَةِ مِنْ خِلَالِ قَصَائِدِهِمْ وَمُدَوَّنَاتِهِمْ؛ لِتَكُونَ شَاهِدَةً عَلَى صَنِيعِ الآبَاءِ وَالأَجْدَادِ، وَيَفْخَرَ التَّارِيخُ بِتِلْكَ المَنَاقِبِ التِي صَدَرَتْ عَنْ قَامَاتٍ لَا يُمَاثِلُهَا أَحَدٌ، وَلَقَدْ كَانَ كِتَابُ "الذَّخِيرَةِ" مِثَالًا قَوِيًّا عَلَى تَجْسِيدِ المَعَانِي وَالأَبْعَادِ الحَضَارِيَّةِ الأَنْدَلُسِيَّةِ مِنْ خِلَالِ مَا أَوْدَعَهُ مِنْ تَرَاجِمَ لِعُظَمَاءِ الأَنْدَلُسِ، وَإِنَّ مُجَرَّدَ النَّظَرِ فِي مُقَدِّمَةِ كِتَابِهِ القَصِيرَةِ يَجْعَلُنَا نَهَبُ الإِجْلَالَ وَالاحْتِرَامَ لِتِلْكَ الأَجْيَالِ الذَّهَبِيَّةِ. وَلَقَدِ اقْتَصَرَتْ دِرَاسَتِي عَلَى مُقَدِّمَةِ الكِتَابِ وَمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنْ دِلَالَاتٍ حَضَارِيَّةٍ، وَهُوَ مَوْضُوعٌ جَدِيرٌ بِالاهْتِمَامِ؛ لِأَنَّهُ يَكْشِفُ عَنْ حِقْبَةٍ تَارِيخِيَّةٍ مُشْرِقَةٍ كَانَتْ سَبَبًا فِي السُّؤْدَدِ الذِي حَظِيَ بِهِ المُسْلِمُونَ وَأَنَارُوا بِهِ الدُّنْيَا.

الكلمات المفتاحية: الشَّنتريني، الذَّخيرة، الدّلالات والأبعاد الحضاريّة، الأدب الأندلسي، الأُفُق الغريب.

مُقَدِّمَةٌ

يَمَّمْتُ شَطْرَ أُفُقِ الأَنْدَلُسِ الذِي أَثْرَى بِجُمَانِ تَارِيخِيَّةٍ مُضِيَّةٍ، وَتَجَلِّيَاتٍ حَضَارِيَّةٍ بَهِيَّةٍ، وَقَدْ عَزَّ فِي الدُّنَى أَنْ يَكُونَ لَهُ سَمِيٌّ أَوْ نَظِيرٌ؛ فَجِيلُهُمْ لَيْسَ كَمِثْلِهِ جِيلٌ! حَتَّى غَدَا رَقُّ تَارِيخِ هَذَا البَرِّ يَتَلَأْلَأُ كَالكَوْكَبِ الدُّرِّيِّ الغَابِرِ فِي السَّمَاءِ، وَيَبْرُقُ مُبْتَهِجًا كَالرَّوْضِ النَّضِيرِ، وَيَبْتَسِمُ لَهُ ثَغْرُ الزَّمَانِ، وَيَتَعَاقَبُ - مِنْ تَفَرُّدِهِ - حَمْدُ الأَجْيَالِ لَهُ. وَإِنَّ أَحْبَارَ أَقْلَامِ أَعْلَامِهِمُ التِي جَرَتْ عَلَى صَفَحَاتِهِ أَضْوَأُ مِنْ نَجْمِ سُهَيْلٍ فِي لَيْلٍ بَهِيمٍ؛ مَلَأُوهُ عُلُومًا وَفُنُونًا، ومَعَارِفَ وَإِنْجَازَاتٍ، وَأَمْجَادًا وَانْتِصَارَاتٍ؛ فَأَرْقَلْتُ لِأَلْتَقِطَ الدُّرَّ النَّضِيدَ مِنَ المَآثِرِ وَالمَنَاقِبِ، وَأَحْثِيَ - مِنْ غَيْرِ شِبَعٍ - مِنَ الشَّمَائِلِ وَالفَضَائِلِ طُرًّا؛ وَأَنْظُرَ نَظْرَةَ المُتَأَمِّلِ المُتَفَحِّصِ فِي مَرَامِي وَدِلَالَاتِ الحَيَاةِ الأَنْدَلُسِيَّةِ المُنْسَابَةِ مِنْ عِطْفَيِ العُمْرَانِ وَالحَرَكَةِ العِلْمِيَّةِ وَالثَّقَافِيَّةِ وَأَثَرِهَا فِي نَشْرِ المَكْتَبَاتِ وَالتُّرَاثِ، وَدَوْرِ السَّلَاطِينِ وَالعُلَمَاءِ وَالقُضَاةِ وَالفُقَهَاءِ وَالأُدَبَاءِ الإِيجَابِيِّ فِي شِبْهِ الجَزِيرَةِ الإِيبِيرِيَّةِ؛ لِأُفْسِرَ عَنْ سِرِّ الشَّأْوِ وَالبَأْوِ وَالزَّهْوِ، وَأُمِيطَ

© جميع الحقوق محفوظة لجمعيّة كلّيّات الآداب في الجامعات الأعضاء في اتّحاد الجامعات العربيّة 2022.

* قسم اللغة العربية، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن.

لِثَامَ الخِبْءِ عَنْ وَجْهِ الحَقِيقَةِ التِي لَا يَشْتَجِرُ فِيهَا عَدْلَانِ وَلَا يَنْتَطِحُ فِيهَا كَبْشَانِ حِينَ أَمْسَى سَنَا بَرْقِهَا يَجْلِدُ عُصُورَهَا وَأَحْقَابَهَا بِتَتَابُعٍ تَتَابُعَ الخَرَزِ فِي النِّظَامِ.

وَمَتَى عُجْنَا إِلَى رِجَالَاتِهَا وَحُمَاةِ السِّاحِ فِي أَعْصُرٍ كَمَنَتْ هَؤُلَاءِ الكُمَاةَ؛ أَلْفَيْنَا هِمَمًا كَالصَّخْرَةِ الصَّمَّاءِ، لَا تَعْطِفُهَا صُرُوفُ الدَّهْرِ وَلَا اللَّأْوَاءِ عَنِ المُضِيِّ فِي غَرْزِ الأَمَانِي وَمَا يَصْبُونَ إِلَيْهِ - بِعَزِيمَةٍ وَإِصْرَارٍ، تَأَسِّيًا بِالسَّالِفِينَ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ؛ فَصَانُوا خَزَائِنَ التُّرَاثِ بِالدِّرْهَمِ وَالدِّينَارِ، وَبَذَلُوا الدِّمَاءَ وَالأَرْوَاحَ وَالأَعْمَارَ؛ لِإِنْفَاذِ رِسَالَةِ الشَّيَمِ وَالقِيَمِ ذَاتِ العِمَادِ، التِي مَضَتْ خَيْرَ زَادٍ وَعَتَادٍ؛ حتَّى سَمَا صِيتُهُمْ كُلَّ سَهْلٍ وَوَادٍ، وَيَفَاعٍ وَوِهَادٍ، وَأَذْعَنَ لَهُمْ كُلُّ حَاضِرٍ وَبَادٍ. نَبَتَتْ أُصُولُهُمْ بَيْنَ نَوْرِ الشَّقَائِقِ وَالخُزَامَى وَالجُلَّنَارِ، فَاسْتَافُوا عَبِيرَهَا، وَرَبَتْ أَرْوَاحُهُمْ مَوْشِيَّةً عَلَى حُبِّ الأَنْدَلُسِ، وَالغَيْرَةِ عَلَى حُرُمَاتِهَا، وَالذَّبِّ عَنْ حِيَاضِهَا؛ فَوُسِمَتْ آثَارُهَا فِيمَا خَلَّدُوهُ مِنْ أَسْفَارٍ، تَالِدِهَا وَطَارِفِهَا، مَنْظُومِهَا وَمَنْثُورِهَا.

وَمِنْ نَافِجَةِ العِلْمِ يَفُوحُ أَرِيجُ مُصَنَّفٍ لِأَحَدِ الكُمَاةِ وَالفُرْسَانِ، مَنْ أَضْنَاهُ السَّفَرُ حِينَ جَابَ مِئِينَ مِنَ الفَرَاسِخِ وَالأَمْيَالِ مِنْ ظُلَمِ العِدَا، حَتَّى قَرَّ فِي بَلْدَةٍ آمِنَةٍ مُطْمَئِنَّةٍ، فَمَلَأَ نُورُ كِتَابِهِ الآفَاقَ، بِسُرْعَةٍ فَاقَتِ الخَيْلَ العِتَاقَ؛ فَكَانَ قَمِينًا أَنْ يُنْظَرَ فِيهِ، فَشَدَدْتُ الوَثَاقَ؛ لِأَجْنِيَ مِنْ دَوْحَةِ المَعْرِفَةِ عِذْقًا مِنَ الأَعْذَاقِ، إِنَّهُ سِفْرُ "الذَّخِيرَةِ فِي مَحَاسِنِ أَهْلِ الجَزِيرَةِ"، لِأَبِي الحَسَنِ عَلِيِّ بنِ بَسَّامٍ الشَّنْتَرِينِيِّ، نَائِيًا عَنْ طُرُوقِ الغُلَوَاءِ فِي الإِطْرَاءِ.

وَلَقَدْ صَيَّرْتُ بَحْثِيَ أَشْطَارًا؛ بَدْءًا بِهَذِي المُقَدِّمَةِ، فَالتَّعْرِيفِ بِالمُصَنَّفِ، فَالتَّعْرِيفِ بِالمُصَنِّفِ، فَالدِّلَالَاتِ وَالأَبْعَادِ الحَضَارِيَّةِ المُسْتَخْلَصَةِ مِنْ مُقَدِّمَةِ "الذَّخِيرَةِ"، مُذَيِّلًا بِثَبَتِ المَصَادِرِ وَالمَرَاجِعِ.

التَّعْرِيفُ بِالمُصَنَّفِ

* اسْمُهُ وَوَصْفُهُ:

"الذَّخِيرَةُ فِي مَحَاسِنِ أَهْلِ الجَزِيرَةِ"، هَكَذَا كُتِبَ عَلَى الغِلَافِ، أَمَّا مَا جَاءَ فِي مُقَدِّمَةِ كِتَابِ المُصَنِّفِ؛ فَقَدْ نَصَّ الشَّنْتَرِينِيُّ عَلَى تَسْمِيَتِهِ قَائِلًا:"وَقَدْ أَوْدَعْتُ هَذَا الدِّيوَانَ الذِي سَمَّيْتُهُ بِـ (كِتَابِ الذَّخِيرَةِ فِي مَحَاسِنِ أَهْلِ هَذِهِ الجَزِيرَةِ) مِنْ عَجَائِبِ عِلْمِهِمْ، وَغَرَائِبِ نَثْرِهِمْ وَنَظْمِهِمْ"[1]. وَقَدْ وَقَعَ فِي أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ فِي ثَمَانِيَةِ مُجَلَّدَاتٍ، وَفِي نِهَايَةِ كُلِّ قِسْمٍ فِهْرِسْت. حَقَّقَهُ إِحْسَانُ عَبَّاس، وَطَبَعَتْهُ دَارُ الثَّقَافَةِ فِي بَيْرُوت، سَنَةَ 1399هـ - 1979م. وَفِيهِ يُشِيرُ المُحَقِّقُ إِلَى أَنَّهُ يَوَدُّ أَنْ لَوْ كَانَ جُزْءٌ تَاسِعٌ لِلِاسْتِدْرَاكَاتِ العَامَّةِ وَالتَّعْلِيقَاتِ وَبَعْضِ الفَهَارِسِ الفَنِّيَّةِ، وَلِدِرَاسَةِ المُؤَلِّفِ وَمَنْزِلَتِهِ الأَدَبِيَّةِ وَقِيمَةِ كِتَابِهِ مِنَ النَّوَاحِي التَّارِيخِيَّةِ وَالأَدَبِيَّةِ وَالنَّقْدِيَّةِ. وَهَذِهِ الطَّبْعَةُ هِيَ التِي اعْتَمَدْتُهَا فِي النُّقُولَاتِ وَالِاسْتِشْهَادِ فِي هَذَا البَحْث. وَلِلْكِتَابِ طَبَعَاتٌ أُخْرَى، وَمِنْهَا:

1. طَبْعَةُ القَاهِرَةِ، نَشَرَتْهَا كُلِّيَّةُ الآدَابِ/ جَامِعَةُ فُؤَادِ الأَوَّلِ، سَنَةَ 1939م - 1945م.

2. طَبْعَةُ دَارِ الكُتُبِ العِلْمِيَّةِ الأُولَى فِي بَيْرُوتَ، عَامَ 1998م، وَهِيَ بِتَحْقِيقِ سَالِمٍ مُصْطَفَى البَدْرِيِّ.

وَ"الذَّخِيرَةُ" مُصَنَّفٌ يُعَدُّ مِنْ أَهَمِّ مَصَادِرِ الأَدَبِ وَتَرَاجِمِ أَعْلَامِ بَرِّ الأَنْدَلُسِ، قَسَّمَهُ صَاحِبُهُ إِلَى أَرْبَعَةِ مَوَاضِيعَ:

1. أَهْلُ حَضْرَةِ قُرْطُبَةَ وَمَا يُصَاقِبُهَا مِنْ بِلَادِ مُوسَطَةِ الأَنْدَلُسِ.
2. أَهْلُ الجَانِبِ الغَرْبِيِّ مِنَ الأَنْدَلُسِ، وَذِكْرِ أَهْلِ حَضْرَةِ إِشْبِيلِيَةَ، وَمَا اتَّصَلَ بِهَا مِنْ بِلَادِ سَاحِلِ البَحْرِ المُحِيطِ.
3. أَهْلُ الجَانِبِ الشَّرْقِيِّ مِنَ الأَنْدَلُسِ.
4. مَنْ طَرَأَ عَلَى جَزِيرَةِ الأَنْدَلُسِ مِنْ شُعَرَاءَ وَكُتَّابٍ، وَبَعْضِ المَشَاهِيرِ مِمَّنْ نَجَمَ بِإِفْرِيقِيَةَ وَالشَّامِ وَالعِرَاقِ.

وَ"الذَّخِيرَةُ" أَكْثَرُ تَنْظِيمًا مِنْ "نَفْحِ الطِّيبِ" لِلْمَقَّرِيِّ، وَتَوْزِيعُ أَسْمَاءِ مَنْ تَرْجَمَ ابْنُ بَسَّامٍ لَهُمْ رُوعِيَتْ فِيهِ النَّاحِيَةُ الجغْرَافِيَّةُ تِبْعًا لِخُطَا أَبِي مَنْصُورٍ الثَّعَالِبِيِّ فِي كِتَابِهِ "يَتِيمَةِ الدَّهْرِ فِي مَحَاسِنِ أَهْلِ العَصْرِ"؛ إِذْ شَرَعَ بِذِكْرِ الكُتَّابِ الذِينَ رَآهُمْ صُدُورًا فِي الأَدَبِ، فَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ لَهُ حَظٌّ مِنَ السِّيَاسَةِ وَالرِّيَاسَةِ؛ فَإِنَّهُ يَبْدَأُ بِهِ. فَفِي قُرْطُبَةَ – مَثَلًا - اسْتَفْتَحَ بِمَنْ مَلَكَهَا مِنْ مُلُوكِ قُرَيْشٍ، ثُمَّ عَطَفَ بِالكُتَّابِ وَالوُزَرَاءِ، ثُمَّ بِأَعْيَانِ الشُّعَرَاءِ، ثُمَّ المُقِلِّينَ مِنْهُمْ، وَكَذَا فِي كُلِّ قِسْمٍ، بَدْءًا بِالمُلُوكِ.

وَلَمْ يُتَرْجِمْ إِلَّا لِأَهْلِ عَصْرِهِ، وَكَانَ يَقُولُ:"وَلَا تَعَدَّيْتُ أَهْلَ عَصْرِي، مِمَّنْ شَاهَدْتُهُ بِعُمُرِي، أَوْ لَحِقَهُ بَعْضُ أَهْلِ دَهْرِي؛ إِذْ كُلُّ مُرَدَّدٍ ثَقِيلٌ، وَكُلُّ مُتَكَرِّرٍ مَمْلُولٌ"[2].

وَكَتَبَ "الذَّخِيرَةَ" وَهُوَ مَكْلُومٌ؛ عِنْدَ فِرَاقِ شَنْتَرِينَ، لَائِذًا بِالفِرَارِ إِلَى إِشْبِيلِيَةَ مَعَ آخَرِينَ مِنَ الفُونْسُو الخَامِسِ وَجُمُوعِهِ مِنَ الرُّومِ.

*** سَبَبُ تَصْنِيفِ الكِتَابِ:**

انْتَفَضَ ابْنُ بَسَّامٍ لِكِتَابَةِ "الذَّخِيرَةِ"؛ بِسَبَبِ صَرْفِ وُجُوهِ أُنَاسٍ مِنْ أَهْلِ قُطْرِهِ شَطْرَ أَهْلِ المَشْرِقِ، آبِينَ إِلَّا مُتَابَعَتَهُمْ -وَكَانَ يَرَى أَنَّ أَشْعَارَهُمْ وَأَخْبَارَهُمْ لَا يَعْمُرُ بِهَا جَنَانٌ وَلَا خَلَدٌ-؛ فَقَالَ:"فَغَاظَنِي مِنْهُمْ ذَلِكَ، وَأَنِفْتُ مِمَّا هُنَالِكَ، وَأَخَذْتُ نَفْسِي بِجَمْعِ مَا وَجَدْتُ مِنْ حَسَنَاتِ دَهْرِي، وَتَتَبُّعِ مَحَاسِنِ أَهْلِ بَلَدِي وَعَصْرِي؛ غَيْرَةً لِهَذَا الأُفُقِ الغَرِيبِ"[3].

وَكَانَ شَدِيدَ الِانْتِهَارِ وَالإِنْكَارِ عَلَى مَنْ قَصَرَ وَاحَةَ العِلْمِ عَلَى المَشَارِقَةِ دُونَ أَحَدٍ مِنَ العَالَمِينَ، أَوْ عَلَى زَمَانٍ دُونَ آخَرَ؛ فَالعِلْمُ لَا يَقْبَلُ الجُمُودَ، وَالأُمَّهَاتُ لَمْ يَزَلْنَ يَلِدْنَ العُلَمَاءَ وَالأُدَبَاءَ عَلَى مَرِّ العُصُورِ وَكَرِّ الدُّهُورِ، وَإِنَّ مَنْ سَارَ عَلَى الدَّرْبِ وَصَلَ؛ فَكَمْ بَصِيرٍ وَقَفَتِ الدُّنْيَا مَشْدُوهَةً مِنْ جَلِيلِ مَعْرِفَتِهِ ! وَشَهِدَتِ الأَنَامُ لَهُ فِي التَّصَانِيفِ حَمِيدَ صَوْلَتِهِ!

التَّعْرِيفُ بِالمُصَنِّفِ

لَمْ أُلْفِ كَبِيرَ تَرْجَمَةٍ عَنِ المُصَنِّفِ، غَيْرَ أَنَّ الدَّهْرَ انْتَضَلَ هَذَا العَلَمَ فِي زَمَنٍ "العَجَبُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي حِسَابِ الآدَابِ الأَنْدَلُسِيَّةِ أَنَّهُ سَيُبْعَثُ مِنْ شَنْتَرِينَ قَاصِيَةِ الغَرْبِ وَمَحَلِّ الطَّعْنِ وَالضَّرْبِ مَنْ يَنْظِمُهَا قَلَائِدَ فِي جِيدِ الدَّهْرِ، وَيُطْلِعُهَا ضَرَائِرَ لِلْأَنْجُمِ الزُّهْرِ، وَلَمْ يَنْشَأْ بِحَضْرَةِ قُرْطُبَةَ وَلَا بِحَضْرَةِ إِشْبِيلِيَةَ وَلَا غَيْرِهَا مِنَ الحَوَاضِرِ العِظَامِ مَنْ يَمْتَعِضُ امْتِعَاضًا لِأَعْلَامِ عَصْرِهِ، وَيَجْهَدُ فِي جَمْعِ حَسَنَاتِ نَظْمِهِ وَنَثْرِهِ"[4]؛ إِنَّهُ أَبُو الحَسَنِ عَلِيُّ بنُ بَسَّامٍ الشَّنْتَرِينِيُّ، مَنِ اشْتُهِرَ بِمُصَنَّفِ "الذَّخِيرَةِ"، وَهِيَ "تُعَنْوِنُ عَنْ مَحَاسِنِهِ الغَزِيرَةِ.. وَنَثْرُهُ فِي كِتَابِ "الذَّخِيرَةِ" يَدُلُّ عَلَى عُلُوِّ طَبَقَتِهِ، وَأَمَّا مَا أَنْشَدَهُ فِيهَا لِنَفْسِهِ مِنَ الشِّعْرِ؛ فَنَازِلٌ"[5].

"وَشُهْرَتُهُ تُغْنِي عَنْ ذِكْرِهِ.. وَهُوَ مَنْسُوبٌ إِلَى شَنْتَرِينَ مِنَ الكُوَرِ الغَرْبِيَّةِ البَحْرِيَّةِ مِنْ أَعْمَالِ بَطَلْيَوْسَ"[6]، وَبَلْدَتُهُ -التِي نَمَا فِيهَا وَرَبَا- تَقَعُ "عَلَى 67 كِيلُو مِتْرًا مِنْ أُشْبُونَةَ"[7]، فِي الشَّمَالِ الشَّرْقِيِّ لِلْبُرتُغَالِ، "وَهِيَ مِنْ أَمْنَعِ المَدَائِنِ، وَهَذِهِ المَدِينَةُ عَلَى نَهْرٍ عَظِيمٍ مِنْ أَنْهَارِ الأَنْدَلُسِ المَشْهُورَةِ، يُسَمَّى (تَاجُو)"[8]. وَقَدْ كَانَتْ بَلْدَةً مَوْفُورَةَ الخَيْرَاتِ وَالأَمْنِ وَالدَّعَةِ. قَالَ ابْنُ بَسَّامٍ:"وَقَدْ كُنَّا غُنِينَا هُنَالِكَ بِكَرَمِ الانْتِسَابِ، عَنْ سُوءِ الاكْتِسَابِ، وَاجْتَزَأْنَا بِمَوْفُورِ العَتَادِ، عَنِ التَّقَلُّبِ فِي البِلَادِ"[9].

فَلَمَّا صَبَّحَهُمُ العَدُوُّ؛ أَلْقَى كَأْسَ الكَرَى، وَخَرَجَ مِنْ شَنْتَرِينَ مُنْصَدِعَ الفُؤَادِ، خَائِفًا يَتَرَقَّبُ سُيُوفَ الرُّومِ وَطَعَانَهُمْ، حَتَّى بَلَغَ إِشْبِيلِيَةَ، وَقَرَّ فِيهَا، فَجَعَلَتْ تَكْوِيهِ لَوْعَةُ الأَسَى وَالجَوَى؛ مِنَ اجْتِرَاعِ أَكْأُسِ الِاغْتِرَابِ وَالنَّوَى. وَعَاشَ بَقِيَّةَ عُمُرِهِ هُنَاكَ حَتَّى قَضَى نَحْبَهُ فِيهَا.

"وَتَأَخَّرَتْ وَفَاتُهُ إِلَى سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَأَرْبَعِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ"[10].

الدَّلَالَاتُ وَالأَبْعَادُ الحَضَارِيَّةُ فِي مُقَدِّمَةِ "الذَّخِيرَةِ"

أَمَامَ مُقْلَتَيْنَا وَاقِعُ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ يَشْهَدُ أَنَّ لِطَالِعَةِ "الذَّخِيرَةِ" أَهَمِّيَّةً عَظِيمَةً، يَتَلَمَّسُهَا الرَّاغِبُ المُتَأَمِّلُ فِي صَفَحَاتِ المُقَدِّمَةِ الثَّرَّةِ أَثْنَاءَ النَّظَرِ الفَاحِصِ، فَيُلْفِي كَثِيرًا مِنَ الإِشَارَاتِ إِلَى مَظَاهِرِ تِلْكَ الحَضَارَةِ العَرِيقَةِ عَلَى بَرِّ الأَنْدَلُسِ وَتَجَلِّيَاتِهَا، التِي لَمْ تَزَلِ النَّاسُ - فِي كُلِّ الأَعْصَارِ وَالأَمْصَارِ - تَخْرِفُ مِنْ عِذْقِهَا الدَّوَّاحِ مِئِينَ مِنَ السِّنِينَ؛ فَآثَارُهُمْ مُخَلَّدَةٌ، وَإِنْجَازَاتُ العُظَمَاءِ الأَمَاجِدِ فِي الفِكْرِ وَالثَّقَافَةِ وَالعُمْرَانِ وَسَائِرِ العُلُومِ وَالفُنُونِ تَنْبِضُ فِيهَا الحَيَاةُ؛ فَاعْتَرَتْنِي لِذِكْرَاهُمْ هِزَّةٌ وَحَنِينٌ؛ وَاهْتَبَلْتُ فُرْصَةً سَنَحَتْ لِيَ أَنْ أَقْنُصَ فِيهَا بَعْضَ الفِكَرِ التِي أَلْمَحَ إِلَيْهَا المُصَنِّفُ وَأَوْمَأَ فِي طُرَّةِ سِفْرِهِ، ثُمَّ عَمَدْتُ إِلَى تَقْيِيدِ مَا اصْطَيدَ مِنْهَا هَهُنَا؛ لِتَكُونَ فِي مُتَنَاوَلِ القُرَّاءِ وَالنُّظَّارِ، فَكَانَتْ أَرْبَعِينَ كُنَاشَةً اُسْتُلَّتْ مِنْ نَفْثَةِ مَصْدُورٍ فِي رَقِّهِ المَنْشُورِ، وَهِيَ:

1. **شُيُوعُ حَرَكَةِ التَّأْلِيفِ وَالتَّصْنِيفِ** خِلَالَ تَسْطِيرِ الأَخْبَارِ وَالأَشْعَارِ وَمُخْتَلَفِ العُلُومِ وَالفُنُونِ فِي الكَاغِدِ، وَ"الذَّخِيرَةُ" وَاحِدٌ مِنْ آثَارِ هَذِي الحَرَكَةِ التِي بَاتَتْ سُنَّةً مَاضِيَةً، تَجْرِي فِي العُرُوقِ جَرْيَ الدَّمِ؛ لِمَا يَعْتَبِرُهُ أَهْلُ الكِتَابَةِ وَفَاءً لِلْعِلْمِ وَزَكَاةً لَهُ، وَإِنَّهُ مَهْمَا اعْتَرَتْهُمُ الظُّرُوفُ السِّيَاسِيَّةُ وَبَكَرَتْ عَصِيَّةً؛ فَلَا يَعْنِي النُّكُوصَ وَالنُّكُولَ عَنْ مَسْكِ الدَّوَاةِ وَالقَلَمِ -أَلْبَتَّةَ-. فَقَدْ صَارَعَ ابْنُ بَسَّامٍ - الذِي أَمْسَى فِي حَالَةٍ نَفْسِيَّةٍ مُتَرَدِّيَةٍ - الجَاثِيَاتِ عَلَى صَدْرِهِ مِنَ الوَجْدِ وَالهَمِّ وَالغَمِّ، ثُمَّ عَقَرَهَا وَأَعْلَى رَايَةَ القَلَمِ، وَرَتَقَتْ أَنَامِلُهُ - بِعَزِيمَةٍ فَذَّةٍ - هَذَا السِّفْرَ الخَالِدَ، وَدَفَعَهُ إِلَى حَيِّزِ الوُجُودِ فِي أَثْوَابِهِ القُشُبِ؛ لِيُؤْذِنَنَا عَنْ حُبِّهِ العِلْمَ وَاقْتِنَائِهِ أَعَزَّ الأَشْيَاءِ.

2. **ذُيُوعُ حَرَكَةِ النَّسْخِ لِلْمُصَنَّفَاتِ**، وَقَدْ سَأَلَ بَعْضُهُمْ ابْنَ بَسَّامٍ أَنْ يُسْتَنْسَخَ الكِتَابُ، فَوَافَقَ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلَهُ؛ لِئَلَّا يَكُونَ ضَنِينًا عَلَى نَشْرِ العِلْمِ. قَالَ:"وَلَمَّا سُئِلْتُ -أَيْضًا- انْتِسَاخَ هَذَا الدِّيوَانِ، وَرَأَيْتُ شَرَهَ أَهْلِ الزَّمَانِ، إِلَى الِاقْتِبَاسِ مِنْ نُورِهِ، بِمَا يَلْتَقِطُونَهُ مِنْ شُذُورِهِ؛ أَحْبَبْتُ أَنْ يَجُوبَ الآفَاقَ، وَتَسِيرَ بِهِ الرِّفَاقُ"[11]. إِنَّ مُقْتَضَى وُجُودِ حَرَكَةِ النَّسْخِ انْتِشَارُ النُّسَّاخِ وَقِيَامُ ذَوِي الاخْتِصَاصِ بِهَذِهِ المِهْنَةِ، الأَمْرُ الذِي يَتَطَلَّبُ مِنْ أَجْلِهِ تَوْفِيرُ الأَحْبَارِ وَالقَرَاطِيسِ، وَانْتِشَارُ الوَرَّاقِينَ، وَرَصْدُ المُخَصَّصَاتِ المَالِيَّةِ وَالمُكَافَآتِ، وَمِنْ ثَمَّ بُرُوزُ الكَتَبَةِ المَهَرَةِ فِي إِجَادَةِ الخُطُوطِ الأَنْدَلُسِيَّةِ بِأَفَانِينَ كَثِيرَةٍ، وَلَازِمُ الأَمْرِ – أَيْضًا - قِيَامُ أَفْرَادٍ آخَرِينَ تِلْوَ مَرْحَلَةِ النَّسْخِ بِالمُقَابَلَةِ بَيْنَ الأَصْلِ المَخْطُوطِ وَالنُّسَخِ الجَدِيدَةِ. وَهَذَا أَجْمَعُ مَشْهَدٍ حَضَارِيٍّ رَائِقٍ لِأَهْلِ الأَنْدَلُسِ، يُنْبِئُ عَنْ عِنَايَةٍ خَاصَّةٍ بِالعِلْمِ وَأَهْلِهِ.

3. **الأَمَانَةُ العِلْمِيَّةُ** التِي تُوِّجَ بِهَا صَاحِبُ "الذَّخِيرَةِ"، وَكَسَتْهُ المَهَابَةَ وَالوَقَارَ، وَقَلَّدَتْهُ عَلَامَةَ الصِّدْقِ وَالقَبُولِ؛ بِعَزْوِهِ الجُهُودَ لِأَصْحَابِهَا، مُعْرِضًا عَنِ الخِيَانَةِ العِلْمِيَّةِ وَالتَّدْلِيسِ؛ - فَـ"المُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ"[12] -، وَمُعْلِنًا: إِحْسَانَ الظَّنِّ بِالآخَرِينَ مِنَ الكُتَّابِ، وَعَدَمَ العَجَلَةِ فِي اتِّهَامِهِمْ بِالسَّرِقَاتِ، وَجَعْلَهُمْ بُرَآءَ مِنْ هَذِي التُّهَمَةِ؛ إِذْ لَيْسَ بِمُسْتَغْرَبٍ تَوَاطُؤُ الأَفْكَارِ، وَلَا غَرْوَى أَنْ نَلْفِيَ هَذَا السَّمْتَ مِمَّنْ وَاجَهَ الأَخْطَارَ، وَتَحَمَّلَ مَشَاقَّ الأَسْفَارِ، وَبَذَلَ كُلَّ دِرْهَمٍ وَدِينَارٍ؛ لِيَجُوبَ عِلْمُهُ الأَقْطَارَ وَالأَمْصَارَ. يَقُولُ فِي "الذَّخِيرَةِ":"وَإِذَا ظَفِرْتُ بِمَعْنًى حَسَنٍ، أَوْ وَقَفْتُ عَلَى لَفْظٍ مُسْتَحْسَنٍ؛ ذَكَرْتُ مَنْ سَبَقَ إِلَيْهِ.. وَلَسْتُ أَقُولُ: أَخَذَ هَذَا مِنْ هَذَا - مُطْلَقًا! فَقَدْ تَتَوَارَدُ الخَوَاطِرُ، وَيَقَعُ الحَافِرُ عَلَى الحَافِرِ؛ إِذِ الشَّعْرُ مَيْدَانٌ، وَالشُّعَرَاءُ فُرْسَانٌ"[13].

4. **البِنَاءُ العِلْمِيُّ الصَّحِيحُ**، وَنَقَاءُ الأَخْبَارِ وَصَفَاءُ الحَقَائِقِ مِنْ كُلِّ آفَةٍ وَتَلْفِيقٍ، وَطَرْحُ زَيْفِ الكَلَامِ وَبَهْرَجِهِ، وَالإِعْرَاضُ عَنْ عَلِيلِهِ وَمَيْنِهِ، يَقُولُ ابْنُ بَسَّامٍ:"وَحَقَائِقُ العُلُومِ أَوْلَى بِنَا مِنْ أَبَاطِيلِ المَنْثُورِ وَالمَنْظُومِ"[14]. فَهُوَ يُجَلِّي لَنَا الأَسَاسَ القَوِيَّ وَالمَتِينَ الذِي نَهَضَ عَلَيْهِ صَرْحُ الحَضَارَةِ، وَلَمْ يَنْتَصِبِ فِيهِ العَرْشُ عَلَى قَشٍّ وَبِنَاءٍ هَشٍّ؛ فَمَا بُنِيَ عَلَى بَاطِلٍ؛ فَهُوَ بَاطِلٌ، وَفِي

التَّنْزِيل:﴿وَالبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ - سُورَةُ الأَعْرَافِ، 58.

5. **التَّجَرُّدُ فِي الكِتَابَةِ** مِنَ الذَّاتِيَّةِ وَأَهْوَاءِ النَّفْسِ وَحُظُوظِهَا، وَقَصْدُ المَوْضُوعِيَّةِ فِي التَّأْلِيفِ وَالنَّزَاهَةِ فِي التَّصْنِيفِ؛ قَالَ ابنُ بَسَّامٍ فِي مَعْرِضِ حَدِيثِهِ عَنْ تَصْنِيفِ "الذَّخِيرَةِ": "وَمَا قَصَدْتُ بِهِ-عَلِمَ اللهُ- الطَّعْنَ عَلَى فَاضِلٍ، وَلَا التَّعَصُّبَ لِقَائِلٍ عَلَى قَائِلٍ"[15].

6. **تَمَيُّزُ الكُتَّابِ الأَنْدَلُسِيِّينَ**، وَبُدُوُّ اقْتِدَارِهِمْ فِي التَّصْنِيفِ؛ نَظَرًا لِامْتِلَاكِهِمْ أَدَوَاتِ التَّعْبِيرِ فِي صِيَاغَةِ الجُمَلِ وَالتَّرَاكِيبِ بِمُعْجَمٍ لُغَوِيٍّ زَاخِرٍ، وَابْنُ بَسَّامٍ عَالِمٌ فِي هَذَا العَالَمِ؛ فَقَدْ تَجَلَّتْ جَمَالِيَّاتُ الطَّبِيعَةِ فِي مُقَدِّمَةِ ذَخِيرَتِهِ بِأُسْلُوبٍ أَخَّاذٍ، مَوْشِيَّةً بِزَخَارِفِ المُحَسِّنَاتِ البَدِيعِيَّةِ، وَتَرْصِيعِ العِبَارَاتِ بِجَوَاهِرِ الأَلْفَاظِ، حَتَّى غَدَا سِفْرُهُ وَكَأَنَّهُ ضَرْبٌ مِنْ فَنِّ المَقَامَاتِ الذِي ابْتَدَعَهُ بَدِيعُ الزَّمَانِ الهَمَذَانِيُّ - وَالإِحَالَةُ عَلَى المُقَدِّمَةِ تُغْنِي عَنِ النَّقْلِ -؛ فَالأَنْدَلُسِيُّونَ فَرَطٌ، حَطُّوا رِحَالَهُمْ فِي وَاحَةِ الأَدَبِ، وَلَمَّا يَلْحَقْ بِهِمْ مَنْ وَرَاءَهُمْ! وَقَدْ تَرْجَمَ صَاحِبُ "الذَّخِيرَةِ" لِعَدَدٍ كَبِيرٍ مِنَ الأُدَبَاءِ المُتَفَنِّنِينَ فِي الكِتَابَةِ الأَدَبِيَّةِ البَدِيعَةِ.

7. **غَزَارَةُ المَعْرِفَةِ وَسَعَةُ الحَافِظَةِ**؛ فَقَدِ اتَّسَمَتِ افْتِتَاحِيَّةُ المُقَدِّمَةِ بِالقِصَرِ البَائِنِ، وَبَدَأَهَا بِقَوْلِهِ:"أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللهِ وَلِيِّ الحَمْدِ وَأَهْلِهِ، وَالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ رُسُلِهِ"[16] - فَقَط! ثُمَّ وَلَجَ مُبَاشَرَةً فِي بَسْطِ حَاجَتِهِ لِقَضَاءِ أَرَبَتِهِ؛ فَصَيَّرَ المُقَدِّمَةَ إِحْدَى عَشْرَةَ صَفْحَةً، ثُمَّ جَادَتْ عَلَيْهِ قَرِيحَتُهُ - بِذِهْنٍ وَقَّادٍ - بِمَادَّةِ الكِتَابِ الزَّاخِرَةِ، وَظَهَرَتْ فِي ثَمَانِيَةِ مُجَلَّدَاتٍ زَاهِرَةٍ ! بِالرَّغْمِ مِنْ بُعْدِهِ عَنْ خَزَائِنِ أَسْفَارِهِ، وَمُكَابَدَتِهِ فِي أَسْفَارِهِ!

8. **حُرِّيَّةُ الكِتَابَةِ وَالتَّعْبِيرِ** السَّائِدَةُ آنَذَاكَ، بِالرَّغْمِ مِنَ التَّقَلُّبَاتِ وَالاِضْطِرَابَاتِ السِّيَاسِيَّةِ التِي عَصَفَتْ بِالأَنْدَلُسِ بِصُورَةٍ مُتَوَالِيَةٍ لَافِتَةٍ؛ فَفِي القَرْنِ الخَامِسِ كَانَ آخِرُ عَصْرِ الخِلَافَةِ الأُمَوِيَّةِ سَنَةَ 422هـ، ثُمَّ عَقِبَهُ عَصْرُ مُلُوكِ الطَّوَائِفِ حَتَّى سَنَةِ 484هـ، ثُمَّ بَعْدَ بِضْعَ عَشْرَةَ سَنَةً مِنْ حُكْمِ المُرَابِطِينَ فِي مَطْلَعِ القَرْنِ السَّادِسِ شَرَعَ ابْنُ بَسَّامٍ فِي تَصْنِيفِ "الذَّخِيرَةِ" قَائِلًا:"وَاعْتَمَدْتُ المِائَةَ الخَامِسَةَ مِنَ الهِجْرَةِ"[17]، وَلَمْ تَعْتَرِضْهُ المَوَانِعُ وَالحَوَائِلُ، بَلْ لَاقَى نُصْرَةً وَتَأْيِيدًا مِنْ صَاحِبِ إِشْبِيلِيَةَ التِي قَرَّ فِيهَا وَجَاوَرَهَا.

9. **حِفْظُ السِّيَرِ وَالتَّرَاجِمِ** لِلْأَعْلَامِ مِنْ سَلَاطِينَ وَوُلَاةٍ وَقُضَاةٍ وَوُزَرَاءَ وَأُدَبَاءَ وَشُعَرَاءَ وَعُلَمَاءَ وَفُقَهَاءَ وَأَعْيَانٍ، وَمَا يَتَّصِلُ بِذَلِكَ مِنْ أَخْبَارٍ. "وَمِمَّا يَلْفِتُ النَّظَرَ أَنَّ الأَنْدَلُسِيِّينَ وَضَعُوا كُتُبًا كَثِيرَةً فِي التَّرْجَمَةِ لِأَعْلَامِ الأَنْدَلُسِ فِي مُخْتَلَفِ العُصُورِ.. إِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى عِدَّةِ أُمُورٍ، مِنْهَا: اهْتِمَامُ الأَنْدَلُسِ بِعُلَمَائِهِمْ وَتَقْدِيرِهِمْ لَهُمْ"[18]، بِنَشْرِ مَآثِرِهِمْ وَفَضَائِلِهِمْ وَمَنَاقِبِهِمْ وَصَفَحَاتِهِمُ المُشْرِقَةِ، وَقَدْ قَامَ ابْنُ بَسَّامٍ بِتَرْجَمَةٍ لِأَعْلَامٍ فِي التَّرْجَمَةِ؛ مِنْهُم ابْنُ الأَبَّارِ صَاحِبُ كِتَابِ "التَّكْمِلَةِ عَلَى الصِّلَةِ"، وَتَرْجَمَ لِأَبِي مَنْصُورٍ الثَّعَالِبِيِّ صَاحِبِ "يَتِيمَةِ الدَّهْرِ فِي مَحَاسِنِ أَهْلِ

العَصْرِ"، وَتَرْجَمَ لِابْنِ الفَرَضِي صَاحِبِ كِتَابِ "تَارِيخِ عُلَمَاءِ الأَنْدَلُسِ"، وَكُلٌّ لَهُ عِنَايَةٌ فِي التَّرَاجِمِ. وَفِي مُقدِّمَةِ "الذَّخِيرَةِ" أَشَارَ الشَّنْتَرِينِيُّ إِلَى عَدَدٍ مَنْ تَرْجَمَ لَهُ، وَالمَعَايِيرِ التِي اعْتَمَدَ عَلَيْهَا فِي التَّرْجَمَةِ، وَلَقَدْ أَتَى بِتَرَاجِمَ جَدِيدَةٍ؛ فَالمُكَرَّرُ عِنْدَهُ ثَقِيلٌ وَمَمْلُولٌ - وهَذِي قَنْطَرَةُ الِابْتِكَارِ وَالإِبْدَاعِ.

10. **نَشْرُ العِلْمِ** عَلَى التُّرَابِ الأَنْدَلُسِيِّ فِي المُدُنِ وَالأَقَالِيمِ، وَفِي البِقَاعِ الإِسْلَامِيَّةِ الأُخْرَى وَالدُّوَلِ المُصَاقِبَةِ، وَهُوَ شِعَارُهُمْ وَدِثَارُهُمْ؛ فَالأَنْدَلُسُ لَمْ تَكُن مُنْطَوِيَةً عَلَى نَفْسِهَا مُنْغَلِقَةً عَنِ العَالَمِ الخَارِجِيِّ، وَإِنَّمَا كَانَ انْفِتَاحُهَا مِنْ أَسْرَارِ نَجَاحِهَا، إِذْ لَمْ تَسْتَأْثِرْ بِمَآثِرِهَا الحَضَارِيَّةِ ضَنًّا، بَلْ كَانَتْ كَالقِدْرِ إِذَا اسْتَجْمَعَتْ غَلَيَانًا، تَفِيضُ عُلُومًا وَفُنُونًا عَلَى النَّاسِ كَافَّةً، وَإِنَّ فِي قَوْلِهِ:" أَحْبَبْتُ أَنْ يَجُوبَ الآفَاقَ، وَتَسِيرَ بِهِ الرِّفَاقُ"[19] حُبًّا فِي نَفْعِ الخَلْقِ؛ لِيَصِلَ الخَيْرُ إِلَى كُلِّ قُطْرٍ.

11. **صَوْنُ التُّرَاثِ وَحِفْظُهُ فِي قِمَطْرٍ وَأَوْعِيَةٍ خَاصَّةٍ بَيْنَ دَفَّتَيْنِ**؛ حِفْظًا لَهُ مِنَ النِّسْيَانِ وَالتَّبَدُّدِ وَالضَّيَاعِ، وَلِتَفِيدَ مِنْهُ الأَجْيَالُ اللَّاحِقَةُ وَالمُتَعَاقِبَةُ، وَتَكُونَ مَعَانِي الحَضَارَةِ مُمْتَدَّةً أَبَدَ الدَّهْرِ، وَسِفْرُ "الذَّخِيرَةِ" كَنْزٌ وَمَثَلٌ لِإِحْدَى ذَخَائِرِ التُّرَاثِ الإِسْلَامِيِّ، وَقَدْ صِينَ، وَتَنَاقَلَتْهُ النَّاسُ جِيلًا بَعْدَ جِيلٍ، وَظَلَّ شَاهِدًا عَلَى بَذْلٍ وَعَطَاءِ مَنْ كَابَدَ وَأَنْفَقَ سَاعَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ فِي إِعْدَادِهِ إِلَى أَنْ وَصَلَنَا الجُهْدُ المُبَارَكُ، وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَةَ الشَّاعِرِ[20] التِي أَشَارَتْ إِلَى تَخْلِيدِ فِكْرِ الكَاتِبِ الذِي يُدَوِّنُ عِلْمَهُ فِي قَرَاطِيسَ:

وَمَا مِنْ كَاتِبٍ إِلَّا سَيَبْلَى ... وَيَبْقَى الدَّهْرَ مَا كَتَبَتْ يَدَاهُ

وَلَقَدْ أَعْرَبَ الشَّنْتَرِينِيُّ عَنْ حَاجَتِهِ لِكَلَامِ ابْنِ حَيَّانَ المُدَوَّنِ فِي مُصَنَّفِهِ "المُقْتَبَسِ" قَائِلًا:"فَإِذَا أَعْوَزَنِي كَلَامُهُ، وَعَزَّنِي سَرْدُهُ وَنِظَامُهُ؛ عَكَفْتُ عَلَى طَلَلِيَ البَائِدِ، وَضَرَبْتُ فِي حَدِيدِيَ البَارِدِ، عَلَى حِفْظٍ قَدْ تَشَعَّبَ، وَحَظٍّ مِنَ الدُّنْيَا قَدْ ذَهَبَ"[21]. هَذَا وَهُوَ مَكْلُومُ الفُؤَادِ، طَرِيدُ شَرِيدٍ، قَصِيٌّ عَنْ مَكْتَبَتِهِ وَدَارِهِ وَقَرَارِهِ، إِلَّا أَنَّهُ آيَةٌ فِي الحِفْظِ وَالتَّمَكُّنِ مِنَ العِلْمِ الذِي وَعَاهُ صَدْرُهُ.

وَهَذِي بَرْقِيَّةٌ عَاجِلَةٌ لِبَيَانِ أَهَمِّيَّةِ ضَبْطِ الصَّدْرِ؛ لِأَنَّ العِلْمَ الحَقِيقِيَّ مَا قَامَ فِي الذَّاتِ وَاضَ كَمِيعَ المَرْءِ وَظِلَّهُ الوَارِفَ الذِي لَا يَنْفَكُّ عَنْهُ، وَهُوَ مَا أَشَارَ إِلَيْهِ الشَّاعِرُ[22] مُنْشِدًا:

لَيْسَ بِعِلْمٍ مَا حَوَى القِمَطْرُ ... مَا العِلْمُ إِلَّا مَا حَوَاهُ الصَّدْرُ

فَـــذَاكَ فِيهِ شَرَفٌ وَفَخْرُ ... وَزِينَـــةٌ جَلِيلَـــةٌ وَقَدْرُ

12. **تَعْزِيزُ الانْتِمَاءِ وَالوَلَاءِ لِبَرِّ الأَنْدَلُسِ**، وَبَدَا ذَلِكَ:

أَوَّلًا: مِنَ التَّرْجَمَةِ لِأَعْيَانِ أَهْلِ الأَنْدَلُسِ وَمَنْ طَرَأَ عَلَيْهَا.

ثَانِيًا: مِنَ الدَّافِعِ لِتَصْنِيفِ "الذَّخِيرَةِ" حِينَ غَاظَهُ مَنْ يُقَدِّسُ عِلْمَ المَشَارِقَةِ وَيَقِفُ أَمَامَهُ مَسْتَسْلِمًا كَالصَّنَمِ، آبِيًا النَّظَرَ إِلَى مَا سِوَاهُ؛ فَقَالَ مِنْ جَرَّاءِ ذَلِكَ:"وَأَخَذْتُ نَفْسِي بِجَمْعِ مَا وَجَدْتُ مِنْ حَسَنَاتِ دَهْرِي، وَتَتَبُّعِ مَحَاسِنِ أَهْلِ بَلَدِي وَعَصْرِي"[23].

وَهَذَا بَرِيدُ الْمُفَاخَرَةِ بِالأُفُقِ الغَرِيبِ، وَالمُفَاضَلَةِ بَيْنَ البَرَيْنِ؛ الأَنْدَلُسِ وَالمَشْرِقِ.

13. **الدَّعْوَةُ إِلَى الِابْتِكَارِ وَالإِبْدَاعِ**، وَإِذْكَاءُ رُوحِ العِلْمِ، وَبَثُّ الحَمَاسَةِ فِي النُّفُوسِ وَتَنْشِيطُهَا، نَلْتَمِسُهَا فِي قَوْلِهِ:"وَلَحَى اللهُ قَوْلَهُمْ: "الفَضْلُ لِلْمُتَقَدِّمِ"؛ فَكَمْ دَفَنَ مِنْ إِحْسَانٍ، وَأَخْمَلَ مِنْ فُلَانٍ !"[24]؛ لِأَنَّهُ رَأَى أَنَّ المَقُولَةَ تَهدِفُ إِلَى قَتْلِ رُوحِ المُنَافَسَةِ وَالتَّحَدِّي وَالتَّطَوُّرِ فِي مَجَالَاتِ الحَيَاةِ جَمْعَاءَ، وَهُوَ يَرْبَأُ بِالأَنْدَلُسِيِّينَ إِلَى الِابْتِكَارِ وَالتَّقَدُّمِ وَالإِبْدَاعِ العِلْمِيِّ وَالأَدَبِيِّ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ المَجَالَاتِ، وَيُزَجِّي لَهُمْ سَحَائِبَ الرَّجَاءِ وَالأَمَلِ وَالحَيَوِيَّةِ أَنْ تُظِلَّهُمْ، فَتُصِيبَهُمْ مِنْ خَيْرِهَا وَنَفْعِهَا؛ وَذَلِكَ:

أَوَّلًا: إِشْفَاقًا مِنْ أَنْ تَنْضَبَ عُيُونُ العِلْمِ وَالعُلَمَاءِ، وَخَشْيَةَ عَوْدِ بُدُورِ هَذَا الأُفُقِ أَهِلَّةً.

ثَانِيًا: لِأَنَّ العُلُومَ تَتَقَدَّمُ، وَتَمْضِي فِي تَطَوُّرٍ مُسْتَمِرٍّ، وَالعِلْمُ تَرَاكُمِيٌّ بِالضَّرُورَةِ، وَتَضَافُرُ لِجُهُودِ السَّابِقِينَ، وَإِنَّ أَيَّ إِلْغَاءٍ لِجُهُودِ اللَّاحِقِينَ ضَرْبٌ وَتَعْطِيلٌ وَمَحْوٌ وَتَدْمِيرٌ لِكُلِّ جَدِيدٍ ومُبْتَكَرٍ.

وَكَأَنَّ الشَّنْتَرِينِيَّ يَتَفَرَّسُ فِي أَهْلِ قُطْرِهِ أَنَّهُمْ سَيَبْلُغُونَ مَبْلَغًا سَامِقًا يَتَأَلَّقُ فِي سَمَاءِ المَعْرِفَةِ وَلَا يُدْرِكُ رِكَابَهُمْ أَحَدٌ؛ مَتَى سُخِّرُوا لِلْعَمَلِ وَاسْتُفِيدَ مِنْ طَاقَاتِهِمْ.

14. **صَقْلُ شَخْصِيَّةِ العَالِمِ الأَنْدَلُسِيِّ بِضُرُوبٍ مِنْ أَكْسِيَةِ العِلْمِ**، كَالأَعْيَانِ المُتَرْجَمِ لَهُمْ قَدْ نَبَغُوا فِي تَخَصُّصَاتٍ شَتَّى، مِثْلُ: الأَدِيبِ العَالِمِ أَبِي مُحَمَّدٍ غَانِمٍ، وَالفَقِيهِ الأَدِيبِ أَبِي الحَسَنِ الإِسْتِجِّيِّ، وَالوَزِيرِ الخَطِيبِ الأَدِيبِ أَبِي عُمَرَ بنِ حَجَّاجٍ وَغَيْرِهِمْ. فَبِالرَّغْمِ مِنْ فَرْشِ بِسَاطِ الدُّنْيَا المُوَطَّإِ الأَكْنَافِ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ فِي طَبِيعَتِهِمُ الخَلَّابَةِ، وَأَشْغَالِ المَنَاصِبِ التِي تَقَلَّدَهَا بَعْضُهُمْ فِي مُوَاجَهَةِ العِدَا وَخَوْضِ المَعَارِكِ وَإِخْمَادِ الثَّوْرَاتِ الدَّاخِلِيَّةِ وَإِدَارَةِ شُؤُونِ الدَّوْلَةِ؛ فَإِنَّهَا - مَعَ كُلِّ هَذَا وَذَاكَ - لَمْ تُضِعْ صَارِفَةً مَكَانَةَ العِلْمِ عَنْ قُلُوبِهِمْ، وَلَمْ تَمْنَعْهُمْ دُنْيَاهُمْ مِنَ التَّزَوُّدِ مِنْ مُخْتَلَفِ المَعَارِفِ وَالعُلُومِ.

15. **العِنَايَةُ بِعِلْمِ الأَنْسَابِ**، وَيَتَجَلَّى الأَمْرُ بِذِكْرِ أَسْمَاءِ مَنْ سَيُتَرْجِمُ لَهُمْ؛ فَإِنَّهُ يُسَمِّي الشَّخْصَ وَأَبَاهُ وَكُنْيَتَهُ وَصِفَتَهُ وَمِهْنَتَهُ وَبَلْدَتَهُ وَمَذْهَبَهُ أَحْيَانًا؛ فَمَثَلًا تَرْجَمَ لِلْأَدِيبِ أَبِي عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدِ بنِ مَالِكٍ الطَّغْنَرِيِّ مِنْ أَهْلِ غَرْنَاطَةَ - كَذَا قَالَ -، وَالأَدِيبِ أَبِي عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدِ بنِ سُلَيْمَانَ بنِ الحَنَّاطِ المَكْفُوفِ.

16. **الدِّرَايَةُ بِرُوَاةِ الحَدِيثِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ**، وَبَدَا ذَلِكَ حِينَ عَابَ عَلَى المُتَأَثِّرِينَ مِنْ أَهْلِ الأَنْدَلُسِ بِأَهْلِ المَشْرِقِ، وَكَأَنَّ المُنْتَهَى فِي العِلْمِ يَأْرِزُ فِي بِلَادِهِمْ دُونَمَا سِوَاهُمْ؛ فَشَبَّهَ – عِنْدَئِذٍ - رُجُوعَ الأَنْدَلُسِيِّينَ إِلَى كَلَامِ المَشَارِقَةِ الذِينَ لَا يَصْدُرُونَ إِلَّا عَنْهُمْ رُجُوعَ النَّاسِ فِي

سَمَاعِ الرِّوَايَةِ الحَدِيثِيَّةِ وَتَدْوِينِهَا بِدِقَّةٍ إِلَى قَتَادَةَ - وَهُوَ مِنْ مَشَاهِيرِ الرُّوَاةِ - قَائِلًا:"إِلَّا أَنَّ أَهْلَ هَذَا الأُفُقِ أَبَوْا إِلَّا مُتَابَعَةَ أَهْلِ المَشْرِقِ، يَرْجِعُونَ إِلَى أَخْبَارِهِمُ المُعْتَادَةِ، رُجُوعَ الحَدِيثِ إِلَى قَتَادَةَ"[25]. ثُمَّ أَلْفَيْنَاهُ يُشِيرُ فِي قَائِمَةِ مَنْ سَيُتَرْجِمُ لَهُمْ إِلَى بَعْضِ عُلَمَاءِ الحَدِيثِ كَالأَدِيبِ المُحَدِّثِ أَبِي العَبَّاسِ أَحْمَدَ بنِ قَاسِمٍ.

17. **العِنَايَةُ بِالشِّعْرِ وَالشُّعَرَاءِ المَشَارِقَةِ وَالمَغَارِبَةِ**، فَقَدْ غَصَّتِ الحَضَارَةُ الأَنْدَلُسِيَّةُ بِالشُّعَرَاءِ وَالمُبْدِعِينَ، وَشَهِدَتْ نُبُوغَ مَنْ عَلَكَ القَرِيضَ عَلَى تُرَابِهَا، فَكَانَ ثَمَّةَ مَنْ أَنْشَدَهُ عَلَى نِظَامِ عَمُودِ الشِّعْرِ الذِي نَطَقَتْ بِهِ العَرَبُ الفُصَحَاءُ الصُّرَحَاءُ، وَبَدَا مِنْ بَيْنِهِمْ نِظَامُ المُوَشَّحَاتِ الذِي نَبَتَتْ أُصُولُهُ فِي القَرْنِ الثَّالِثِ الهِجْرِيِّ وَلَمْ يَكُنْ مَعْهُودًا مِنْ قَبْلُ، وَكَذَا نِظَامُ الأَزْجَالِ - وَهُوَ شِعْرٌ مُوغِلٌ بِالعَامِّيَّةِ-، أَعْلَى صَدَاهُ الوَزِيرُ وَالكَاتِبُ أَبُو بَكْرِ بنُ قُزْمَانَ - ذَكَرَهُ الشَّنْتَرِينِيُّ مَعَ مَنْ سَيُتَرْجِمُ لَهُ -. وَالأَشْعَارُ ضَرْبٌ مِنْ ضُرُوبِ العِلْمِ وَفَنٌّ مِنْ فُنُونِ العَرَبِيَّةِ؛ حَدَتِ ابْنَ بَسَّامٍ لِيُودِعَ فِي مُقَدِّمَتِهِ مِنْ شِعْرِ عَبْدِالجَلِيلِ بنِ وَهْبُونٍ الأَنْدَلُسِيِّ وَمِنْ شِعْرِ أَبِي تَمَّامٍ وَالمُتَنبِي المَشْرِقِيَّيْنِ، وَتَنَاوَلَ – أَيْضًا - أَحْوَالَ الشُّعَرَاءِ وَمَا يَتَّصِلُ بِهِمْ، إِلَّا أَنَّهُ يَرَى أَنَّ شِعْرَ أَهْلِ عُدْوَتِهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شِعْرٌ! فَهُوَ كَالعُقَابِ يَشُقُّ جَوَّ السَّمَاءِ وَيَخْطَفُ الأَلْبَابَ، وَلَوْ سَمِعَهُ كُثَيِّرٌ لَمَا مَدَحَ، وَلَوْ تَبِعَهُ جَرْوَلُ لَمَا هَجَا وَلَا قَدَحَ، وَقَدْ أَشَارَ - ضَجِرًا وَهُوَ سَؤُومٌ - إِلَى شَيْءٍ مِنْ مَطَالِعِ بَعْضِ القَصَائِدِ الجَاهِلِيَّةِ، التِي جَرَّ تَكْرَارُ إِنْشَادِهَا المَلَالَةَ، كَمُعَلَّقَةِ امْرِئِ القَيْسِ وَالنَّابِغَةِ الذُّبْيَانِيِّ وَزُهَيْرٍ وَطَرَفَةَ وَعَنْتَرَةَ وَغَيْرِهِمْ.

18. **تَقْرِيبُ العُلَمَاءِ وَالأُدَبَاءِ مِنْ بَلَاطِ السُّلَاطِينِ**، وَإِجْلَالُهُمْ وَإِكْرَامُهُمْ، وَالظَّفَرُ بِحَظْوَةٍ خَاصَّةٍ مِنَ الوُلَاةِ وَالأُمَرَاءِ لِمَنَارَاتِ الأَنْدَلُسِ، أَمَّا الحَجْبُ وَالإِقْصَاءُ؛ فَهُوَ بِمَنْأًى عَنْهُمْ؛ فَهَذَا صَاحِبُ إِشْبِيلِيَةَ يُدْنِي ابْنَ بَسَّامٍ مِنْهُ، وَيَسْتَمِعُ إِلَى كِتَابِهِ كَامِلًا، كَمَا أَلْفَيْنَاهُ ذَكَرَ الْأَدِيبَ أَبَا بَكْرٍ الدَّانِيَّ المَعْرُوفَ بِابْنِ اللَّبَّانَةِ، الذِي أَمْضَى رَدَحًا مِنَ الزَّمَنِ يَمْدَحُ مَلِكَ إِشْبِيلِيَةَ المُعْتَمِدَ بنَ عَبَّادٍ، فَلَمَّا جَاءَ عَصْرُ المُوَحِّدِينَ، وَسَجَنَ يُوسُفُ بنُ تَاشَفِينَ أَكْثَرَ مُلُوكِ الطَّوَائِفِ فِي سِجْنِ (أَغْمَاتَ) فِي (مُرَّاكُشَ)؛ أَذِنَ لِلزُّوَّارِ بِالزِّيَارَةِ لِلْمَسْجُونِينَ، فَكَانَ ابْنُ اللَّبَّانَةِ يَزُورُ المُعْتَمِدَ بنَ عَبَّادٍ فِي سِجْنِهِ؛ فَلَقِّبَ بِسَمَوْأَلِ الأَنْدَلُسِ؛ لِوَفَائِهِ.

19. **تَقْدِيرُ أَهْلِ الاِخْتِصَاصِ، وَالاِعْتِرَافُ بِالفَضْلِ لِأَهْلِ الفَضْلِ**، فَقَدْ أَحَالَ صَاحِبُ "الذَّخِيرَةِ" الحُكْمَ بِالصِّحَّةِ أَوِ الضَّعْفِ عَلَى الأَشْعَارِ وَأَنْوَاعِ البَدِيعِ لِأَهْلِ النَّظَرِ وَصَيَارِفَةِ الكَلَامِ ، الذِينَ يَمِيزُونَ بَيْنَ جَيِّدِهِ وَرَدِيئِهِ، إِذْ يَقُولُ:"وَنَكِلُ الأَمْرَ فِي كُلِّ مَا نُثْبِتُهُ، وَنَرُدُّ الحُكْمَ فِي كُلِّ مَا نُورِدُهُ، إِلَى نَقْدِ النُّقَّدِ المَهَرَةِ، وَتَمْيِيزِ الكَتَبَةِ الشَّعَرَةِ، الذِينَ هُمْ رُؤَسَاءُ الكَلَامِ"[26]. وَذَلِكَ مِنْ خَيْرِ حُلَى الكَاتِبِ، وَلِسَانُهُ هَادِينَا لِصِفَةِ تَوَاضُعِ العَالِمِ الذِي لَا يَخُوضُ غِمَارَ أَمْرٍ لَيْسَ أَهْلًا لَهُ، إِذْ يَقُولُ:"وَلَا أَدَّعِي أَنِّي اخْتَرَعْتُ، وَلَكِنِّي لَعَلِّي قَدْ أَحْسَنْتُ حَيْثُ اتَّبَعْتُ، وَأَتْقَنْتُ مَا جَمَعْتُ"[27]؛ لِأَنَّ مَنْ تَكَلَّمَ فِي غَيْرِ فَنِّهِ أَتَى بِالعَجَائِبِ وَالغَرَائِبِ ! وَمَنْ سَكَتَ؛ نَجَا وَسَلِمَ.

20. **وَلَهُ أَهْلِ الأَنْدَلُسِ بِالعِلْمِ وَالمُصَنَّفَاتِ؛** فَقَدْ أَدْرَكُوا سِرَّ نَجَاحِ حَضَارَتِهِمْ، وَعَرَفُوا خَيْرَ أَنِيسٍ وَجَلِيسٍ، وَلَاذُوا بِجَذِيلِهِمُ المُحَكَّكِ المَاحِقِ العَيَّ أَجْمَعَ، وَرَأَى النَّاسُ أَنَّ "الذَّخِيرَةَ" جُؤْنَةُ عَطَّارٍ يَمْلَأُ عَبَقُهَا الآفَاقَ، وَتِرْيَاقٌ يَبْعَثُ عَلَى حَيَاةِ الأَرْوَاحِ، فَمَنِ اقْتَنَاهُ؛ فَقَدْ فَازَ بِالظَّفَرِ وَالمَغْنَمِ، قَالَ عَنْهُمُ الشَّنْتَرِينِيُّ:"وَرَأَيْتُ شَرَهَ أَهْلِ الزَّمَانِ، إِلَى الاِقْتِبَاسِ مِنْ نُورِهِ، بِمَا يَلْتَقِطُونَهُ مِنْ شُذُورِهِ"[28]. فَسِمَتُهُمْ مَحَبَّةُ العِلْمِ وَحَمْلُهُ بِشَغَفٍ مِنْ مَظَانِّهِ وَعَنْ أَرْبَابِهِ، مَا فَرَّطُوا بِسَبِيلِ المَعْرِفَةِ وَالتَّبَصُّرِ؛ فَكَانَ بِمَنْزِلَةِ القُوتِ وَالزَّادِ، لَا غِنَى عَنْهُ.

21. **تَأَلُّمُ العَالِمِ لِجِرَاحَاتِ الأُمَّةِ،** وَانْشِغَالُهُ بِهُمُومِهَا؛ فَابْنُ بَسَّامٍ يَعِيشُ قَضَايَاهَا وَمَا اعْتَرَاهَا مِنْ شِدَّةٍ وَكَرْبٍ وَبَلَاءٍ، فَقَدِ اعْتَصَرَهُ الأَلَمُ وَالأَسَى؛ لَمَّا اجْتَاحَ الرُّومُ دِيَارَهُ، وَعَاثُوا فِيهَا الفَسَادَ، وَآضَتْ بَلَاقِعَ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ، إِذْ كَانُوا - مِنْ قَبْلُ - يَنْعَمُونَ فِي دَعَةٍ وَأَمْنٍ، فَانْقَلَبَ حَالُهُمْ ظَهْرًا لِبَطْنٍ، وَتَبَدَّلَتْ أَحْوَالُهُمْ عُسْرًا بَعْدَ يُسْرٍ، فَخَرَجَ مِنْ مَنْشَئِهِ، هَائِمًا عَلَى وَجْهِهِ، فَارًّا مِنْ بَطْشِ عَدُوِّهِ، يَطْوِي الأَرْضَ طَيَّ الأَدِيمِ، فَمَا إِنْ وَصَلَ إِلَى إِشْبِيلِيَةَ؛ إِلَّا وَنَفْسُهُ "قَدْ تَقَطَّعَتْ شَعَاعًا، وَذَهَبَ أَكْثَرُهَا الْتِيَاعًا"[29]. وَقَالَ – بَعْدًا -:"وَعَلِمَ اللهُ – تَعَالَى - أَنَّ هَذَا الكِتَابَ لَمْ يَصْدُرْ إِلَّا عَنْ صَدْرٍ مَكْلُومِ الأَحْنَاءِ، وَفِكْرٍ خَامِدِ الذَّكَاءِ"[30].

22. **ثَقَافَةُ المُلُوكِ الأَدَبِيَّةُ:** لَقَدْ عُدَّ عَصْرُ مُلُوكِ الطَّوَائِفِ العَصْرَ الذَّهَبِيَّ لِلأَدَبِ الأَنْدَلُسِيِّ، طَارَتِ المَدَائِحُ فِيهِ فِي فِتْيَانِ بَنِي عَامِرٍ، وَمُلُوكِ بَنِي هُودٍ وَبَنِي صُمَادِحٍ وَبَنِي الأَفْطَسِ وَبَنِي ذِي النُّونِ، لَا سِيَّمَا بَنُو عَبَّادٍ؛ فَإِنَّ "لَهُمْ مِنَ الحُنُوِّ عَلَى الأَدَبِ مَا لَمْ يَقُمْ بِهِ بَنُو حَمْدَانَ فِي حَلَبَ، وَكَانُوا هُمْ وَبَنُوهُمْ وَوُزَرَاؤُهُمْ صُدُورًا فِي بَلَاغَتَيِ النَّظْمِ وَالنَّثْرِ"[31]. وَعَلَيْهِ؛ فَقَدْ دَبَّجَ الشَّنْتَرِينِيُّ فِي طَالِعَةِ "الذَّخِيرَةِ" أَنَّهُ سَيُتَرْجِمُ لِلْمَلِكَيْنِ الشَّاعِرَيْنِ: المُعْتَضِدِ بِاللهِ، وَابْنِهِ المُعْتَمِدِ عَلَى اللهِ. وَذَكَرَ أَنَّ صَاحِبَ إِشْبِيلِيَةَ الذِي لَمْ يُفْصِحْ عَنِ اسْمِهِ كَانَ مُحِبًّا لِلشِّعْرِ وَالأَدَبِ؛ فَعَنْهُ يَقُولُ صَاحِبُ "الذَّخِيرَةِ":"وَلِعِلْمِي أَنَّ الأَدَبَ ضَالَّةُ اهْتِبَالِهِ، وَنَتِيجَةُ خِلَالِهِ، وَأَنَّ أَهْلَهُ عَلَى ذِكْرٍ مِنْ إِجْمَالِهِ، وَبِمَكَانٍ مَكِينٍ مِنْ كَمَالِهِ"[32]. وَهَذَا مَلْمَحُ حَضَارِيٌّ يُسْفِرُ عَنْ عِنَايَةٍ وَوِعَايَةٍ وَرِعَايَةٍ لِلْأَدَبِ الذِي حَظِيَ بِاهْتِمَامِ المُلُوكِ وَالأُمَرَاءِ وَالوُلَاةِ!

23. **سَلَامَةُ الصَّدْرِ تُجَاهَ عُلَمَاءِ المُسْلِمِينَ:** فَبِالرَّغْمِ مِن انْتِصَارِهِ لِأَهْلِ قُطْرِهِ فِي الأُفُقِ الغَرِيبِ بِالمُفَاضَلَةِ عَلَى مَا عِنْدَ المَشَارِقَةِ مِنْ عُلُومٍ إِلَّا أَنَّهُ أَوْرَدَ أَسْمَاءَ أَعْلَامٍ طَرَأُوا عَلَى تُرَابِ الأَنْدَلُسِ مِنْ قِبَلِهِمْ، وَتَرْجَمَ لَهُمْ، وَلَمْ يَمْتَنِعْ مِنْ تَرْجَمَةِ هَؤُلَاءِ الأَعْلَامِ؛ إِعْظَامًا وَإِجْلَالًا لِحَمَلَةِ العِلْمِ، مِثْلُ: أَبِي الفِتْيَانِ العَسْقَلَانِيِّ، وَمِهْيَارٍ الدَّيْلَمِيِّ، وَأَبِي مَنْصُورٍ الثَّعَالِبِيِّ، وَغَيْرِهِمْ.

24. **الِاهْتِمَامُ بِعِلْمِ الجَغْرَافْيَا:** وَبَانَ بِجَلَاءٍ فِي الآتِي:

أَوَّلًا: خِلَالَ تَقْسِيمِ مَوْضُوعَاتِ "الذَّخِيرَةِ" بِنَاءً عَلَى الأَقَالِيمِ؛ مُتَأَثِّرًا بِأَبِي مَنْصُورٍ الثَّعَالِبِيِّ.

ثَانِيًا: خِلَالَ تَرْجَمَةِ الشَّنْتَرِينِيِّ لِرَائِدِ الدِّرَاسَاتِ الجَغْرَافِيَّةِ أَبِي عُبَيْدٍ البَكْرِيِّ صَاحِبِ "المسَالِك وَالممَالِك" وَكِتَابِ "مُعْجَمِ مَا استَعْجَمَ".

ثَالِثًا: مُفَاخَرَةُ الشَّنْتَرِينِيِّ بِمُنْجَزَاتِ حَضَارَتِهِ المُدَوِّيَةِ بِالرَّغْمِ مِنْ ضَعْفِ الوَسَائِلِ وَالأَسْبَابِ التِي تَرْتَقِي وَتَنْهَضُ بِهِمْ نَظَرًا إِلَى البُعْدِ الجَغْرَافِيِّ لِمَنْشَئِهِ؛ فَالرُّومُ مُصَاقِبَةٌ لَهُمْ، وَشَنْتَرِينُ قَاصِيَةُ الغَرْبِ آخِرُ الفُتُوحِ الإِسْلَامِيَّةِ، وَأَقْصَى خُطَا المآثِرِ العَرَبِيَّةِ، وَأُحِيطَتْ بِالبَحْرِ المحِيطِ. وَهَذَا يَقْتَضِي الاِسْتِعْدَادَ النَّفْسِيَّ العَالِيَ لَدَى الأَنْدَلُسِيِّينَ لِبِنَاءِ حَضَارَتِهِمْ.

25. **اشْتِهَارُ الدِّرَاسَاتِ التَّارِيخِيَّةِ وَالعِنَايَةِ بِهَا؛** فَقَدْ أَفَادَ ابنُ بَسَّامٍ مِنَ "المُقْتَبَسِ" لابْنِ حَيَّانَ القُرْطُبِيِّ، وَعَرَّفَ بِدَوْلَةِ ابْنِ أَبِي عَامِرٍ مِنْ مَبْدَاهَا إِلَى مُنْتَهَاهَا، وَرَبَطَ التَّرَاجِمَ بِالتَّارِيخِ حِينَ ذَكَرَ مَنْ طَرَأَ عَلَى الأَنْدَلُسِ قَائِلًا:"فِي المُدَّةِ المُؤَرَّخَةِ"[33]، يَعْنِي المِائَةَ الخَامِسَةَ مِنَ الهِجْرَةِ مَطْلَعَ القَرْنِ السَّادِسِ، وَأَرَّخَ لِلْحَوَادِثِ وَمَا مَرَّ بِالأَنْدَلُسِ مِنْ مَرَاحِلِ ضَعْفٍ وَتَرَهُّلٍ وَانْحِسَارٍ لِسُلْطَانِهَا، بِسُقُوطِ بَعْضِ المُدُنِ أَوِ القَصَبَاتِ وَالقِلَاعِ وَالحُصُونِ وَالثُّغُورِ، كَبَلَنْسِيَةَ وَبَرْبُشْتَرَ وَعَوْدِهِمَا لِأَيْدِي المُسْلِمِينَ، وَأَرَّخَ لِإِمَارَةِ عَلِيِّ بنِ حَمُّودٍ وَمَقْتَلِهِ، وَإِمَارَةِ بَنِي جَهْوَرٍ وَبَنِي صُمَادِحٍ وَأَسْبَابِ خَلْعِهِمْ، وَكَيْفِيَّةِ إِمَارَةِ بَنِي الأَفْطَسِ، وَخَبَرِ فَتْحِ سَبْتَةَ وَأَوَّلِ أَمِيرِهَا، وَخَرَابِ القَيْرَوَانِ، وَهَذَا كُلُّهُ يُفْصِحُ:

أَوَّلًا: عَنْ صُمُودِ الحَضَارَةِ الأَنْدَلُسِيَّةِ فِي وَجْهِ التَّحَدِّيَاتِ وَالأَخْطَارِ المُحْدِقَةِ؛ فَقَدْ أَعْرَبَتْ عَنْ تَأْسِيسٍ صَحِيحٍ وَبِنَاءٍ مَتِينٍ لِنَشْأَتِهَا؛ مَا أَهَّلَهَا أَنْ تَسْتَمِرَّ قُرُونًا عَدِيدَةً وَأَزْمِنَةً مَزِيدَةً.

ثَانِيًا: عَنِ الِاطِّلَاعِ الوَاسِعِ وَالثَّقَافَةِ الثَّرَّةِ التِي تَمَتَّعَ بِهَا ابْنُ بَسَّامٍ الشَّنْتَرِينِيُّ.

26. **انْتِشَارُ عِلْمِ الطِّبِّ وَتَشْخِيصِ الأَدْوَاءِ وَالدَّوَاءِ،** فِي المُدُنِ وَالأَنْحَاءِ، بَرَزَ فِيهِ عَالِمٌ لَمَعَ نَجْمُهُ، وَطَارَ فِي الخَافِقَيْنِ اسْمُهُ، مَهَارَةٌ يُدِيرُهَا حَاذِقٌ عَجِيبٌ، عُدَّ مَفْخَرَةً لِلْأُفُقِ الغَرِيبِ، مَا وَسِعَ صَاحِبَ "الذَّخِيرَةِ" إِلَّا أَنْ يُتَرْجِمَ لَهُ، وَلَا مَنْ سَمِعَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَتَقَبَّلَهُ؛ إِنَّهُ الوَزِيرُ الفَقِيهُ أَبُو العَلَاءِ بنُ زُهْرٍ الإِيَادِيُّ، عَقَّارُ الحَوَاضِرِ وَالبَوَادِي، نِطِّيسُ العَلِيلِ المُدَاوِي. ثُمَّ عَطَفَ الشَّنْتَرِينِيُّ عَقِبَهُ بِابْنِ الكِتَّانِيِّ المُتَطَبِّبِ، "وَالمُتَطَبِّبُ: مُتَعَاطِي عِلْمِ الطِّبِّ"[34].

27. **تُسْفِرُ التَّرَاجِمُ عَنْ جُهُودٍ أَنْدَلُسِيَّةٍ مُبَكِّرَةٍ،** وَنَشَاطٍ عِلْمِيٍّ وَثَقَافِيٍّ إِبَّانَ الفُتُوحَاتِ الإِسْلَامِيَّةِ، وَصَحْوَةٍ فِكْرِيَّةٍ مُمْتَدَّةٍ عَبْرَ قُرُونٍ طَوِيلَةٍ؛ فَالحَضَارَةُ - مِنْ يَوْمِئِذٍ - فُلْكٌ يَمْخُرُ فِي عُبَابِ العُقُودِ وَالأَحْقَابِ؛ يَقُولُ الشَّنْتَرِينِيُّ:"وَمَا زَالَ فِي أُفُقِنَا هَذَا الأَنْدَلُسِيِّ القَصِيِّ إِلَى وَقْتِنَا هَذَا مِنْ فُرْسَانِ الفَنَّيْنِ، وَأَئِمَّةِ النَّوْعَيْنِ"[35] -وَيَقْصِدُ المَنْظُومَ وَالمَنْثُورَ مِنَ الكَلَامِ-. وَمَا تَنَاوَلَ الحَدِيثَ عَنْهُ غَيْضٌ مِنْ فَيْضٍ، وَحَصَاةٌ مِنْ ثَبِيرٍ.

28. **الحِفَاظِ عَلَى الهُوِيَّةِ العَرَبِيَّةِ؛** إِذْ إِنَّ ظَاهِرَةَ انْتِشَارِ الشُّعَرَاءِ وَالأُدَبَاءِ فِي المُجْتَمَعِ الأَنْدَلُسِيِّ بِصُورَةٍ لَافِتَةٍ تُعَدُّ مِنْ عَوَامِلِ دَيْمُومَةِ اللِّسَانِ العَرَبِيِّ وَامْتِدَادِ أَجَلِهِ، وَغَرْسِهِ فِي الأَنْدَلُسِ غَرْسَ

الفَسيلِ لِضَمَانِ بَقَائِهِ. وَاللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ هِيَ اللُّغَةُ الرَّسْمِيَّةُ -حِينَئِذٍ- فِي المُخَاطَبَاتِ وَالرَّسَائِلِ، وَيَظْهَرُ ذلكَ مِنْ خِلَالِ كَثْرَةِ مَنْ تَرْجَمَ لَهُمْ مِنَ الشُعَرَاءِ وَالأُدَبَاءِ، وَتَضْمِينِ "الذَّخِيرَةِ" لِمِئَاتٍ مِنَ الأَشْعَارِ، وَجَعْلِ "جُمْلَةِ قَصَائِدَ لِغَيْرِ وَاحِدٍ فِي تَأْبِينِ ابْنِ سِرَاجٍ"[36]، وَفَصْلًا خَاصًّا "يَشْتَمِلُ عَلَى مَقْطُوعَاتِ أَبْيَاتٍ لِجَمَاعَةِ أُدَبَاءِ بِعَصْرِ المُعْتَضِدِ"[37].

29. **الحَضَارَةُ الأَنْدَلُسِيَّةُ ذَاتُ طَابِعٍ إِسْلَامِيٍّ**؛ فَقَدْ أَشَارَ الشَنْتَرِينِيُّ إِلَى أَنَّ بِلَادَهُمْ آخِرُ الفُتُوحِ الإِسْلَامِيَّةِ، وَانْعَكَسَ ذَلِكَ عَلَى أَسْمَاءِ المُدُنِ وَالأَشْخَاصِ وَبِنَاءِ المَسَاجِدِ وَالمَدَارِسِ التَّعْلِيمِيَّةِ وَإِدَارَةِ الدَّوْلَةِ بِالحُكْمِ الإِسْلَامِيِّ، وَمَا مُحَارَبَةِ العِلْجِ لَهُمْ إِلَّا مِنْ أَجْلِ الرِّسَالَةِ التِي حَمَلُوهَا.. وَعَلَيْهِ؛ فَإِنَّ مَا وَصَلَ إِلَيْهِ المُسْلِمُونَ مِنْ ثَقَافَةٍ وَعُمْرَانٍ وَبَسْطِ نُفُوذٍ سِيَاسِيَّةٍ وَعَسْكَرِيَّةٍ وَهَيْمَنَةٍ وَسَطْوَةٍ مِنْ آثَارِ رِسَالَتِهِمُ التِي جَاؤُوا بِهَا، وَيُحْسَبُ لِصَالِحِهِمْ وَلَا يُجَيَّرُ لِغَيْرِهِمْ.

30. **احْتِضَانُ الأَنْدَلُسِ لِلْمَذْهَبِ المَالِكِيِّ**، وَفَتْحُ مَصَارِيعِهَا لِمَدْرَسَةِ الحَدِيثِ؛ وَهُوَ مَا أَثَارَ حَرَكَةً عِلْمِيَّةً وَفَجَّرَ ثَوْرَةً مَعْرِفِيَّةً قَوِيَّةً، وَمَعَ كُلِّ لَمْ يُحْدِثْ زَعْزَعَةً وَلَا شَرْخًا فِي عَرْشِ الحَضَارَةِ الأَنْدَلُسِيَّةِ، بَلْ زَادَهَا رَوْنَقًا وَبَهَاءً، وَزَانَهَا حُسْنًا وَضِيَاءً، وَاتِّسَاعًا لِشَبَكَةِ العَلَاقَاتِ بَيْنَ المُسْلِمِينَ البَرْبَرِ وَالمُوَلَّدِينَ وَالعَرَبِ القَادِمِينَ مِنَ المَشْرِقِ فَاتِحِينَ. وَلَقَدْ تَرْجَمَ ابْنُ بَسَّامٍ لِلقَاضِي أَبِي الوَلِيدِ البَاجِيِّ - فَقِيهُ مَالِكِيُّ -، وَالفَقِيهِ القَاضِي أَبِي الوَلِيدِ المَعْرُوفِ بِابْنِ الفَرَضِيِّ العَالِمِ فِي رِوَايَةِ الحَدِيثِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ. عِلْمًا أَنَّ الدَّوْلَةَ تَبَنَّتِ المَذْهَبَ المَالِكِيَّ فِي عَهْدِ الشَنْتَرِينِيِّ، لَكِنَّهَا لَمْ تُقْصِ مَدْرَسَةَ أَهْلِ الحَدِيثِ، وَهَذَا مِنْ تَنَوُّعِ المَدَارِسِ فِي الحَضَارَةِ الأَنْدَلُسِيَّةِ، وَقَبُولِ الآخَرِ.

31. **سُطُوعُ المَبْدَإِ الإِسْلَامِيِّ:"لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ.. إِلَّا بِالتَّقْوَى"**[38]؛ فَقَدْ تَرْجَمَ ابْنُ بَسَّامٍ لِلأَعْلَامِ وَالأَعْيَانِ غَيْرَ مُفَرِّقٍ بَيْنَهُمْ لِلَوْنٍ أَوْ عِرْقٍ أَوْ مَذْهَبٍ؛ فَمِنْهُمُ الدَّيْلَمِيُّ، وَالبَغْدَادِيُّ، وَالهُذَلِيُّ، وَالعَسْقَلَانِيُّ، وَالمِصْرِيُّ، وَالبَرْبَرِيُّ، وَالصِّقِلِّيُّ، وَالإِسْبَانِيُّ، وَالبُرْتُغَالِيُّ، وَغَيْرُهُمْ. وَهَذَا مِنْ عَوَامِلِ تَمَاسُكِ الحَضَارَةِ وَصَلَابَتِهَا فِي وَجْهِ المُؤَامَرَاتِ التِي تُحَاكُ ضِدَّهُمْ سِنِينَ عَدَدًا حَتَّى سُقُوطِهَا عَامَ 897هـ مِنَ الحَمْلَاتِ الصَّلِيبِيَّةِ، وَقَدْ دَامَتْ دَوْلَةُ بَنِي الأَحْمَرِ -آخِرُ مَعَاقِلِ المُسْلِمِينَ- مَا يَرْبُو عَنْ 250 سَنَةً مَحْفُوفَةً بِالعِلْجِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ.

32. **نَبْذُ الشُعُوبِيَّةِ**، وَبَرَزَ ذَلِكَ مِنْ خِلَالِ ذِكْرِ المُصَنِّفِ لِلْأَدِيبِ أَبِي جَعْفَرِ بنِ الدَّوْدِينِ البَلَنْسِيِّ الذِي سَيُتَرْجِمُ لَهُ، ثُمَّ أَشَارَ إِلَى رِسَالَتِهِ فِي الرَّدِّ عَلَى ابْنِ غَرْسِيَةَ فِي (الشُعُوبِيَّةِ)؛ حَتَّى يُؤَكِّدَ لَنَا خِلَالَ سِفْرِهِ أَنَّ الحَضَارَةَ الأَنْدَلُسِيَّةَ ذَاتُ طَابِعٍ عَرَبِيٍّ إِسْلَامِيٍّ، وَاللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ اللُّغَةُ الرَّسْمِيَّةُ لِلدَّوْلَةِ. وَهُوَ مَا يُبَرْهِنُ عَلَى أَنَّ العَرَبِيَّةَ وَالعَرَبَ مُحَارَبُونَ مُنْذُ مِئَاتِ السِّنِينَ مِمَّنْ يُكِنُّ كُلَّ بُغْضٍ وَكَرَاهِيَةٍ تُجَاهَهُمْ.

33. **حُرِّيَّةُ الأَدْيَانِ وَالتَّعَايُشُ مَعَ أَهْلِ الذِّمَّةِ:** يَذْكُرُ ابْنُ بَسَّامٍ فِي المُقَدِّمَةِ أَنَّهُ سَيَتَرْجِمُ لِلشُّاعِرِ المُنْفَتِلِ الذِي مَدَحَ ابْنَ نَغْرِيلَةَ اليَهُودِيَّ الذِي تَقَلَّدَ الوَزَارَةَ فِي غَرْنَاطَةَ فِي ظِلِّ دَوْلَةِ بَنِي زِيرِي، وَقَادَ حَمْلَاتٍ ضِدَّ مَمْلَكَةِ بَنِي عَبَّادٍ فِي إِشْبِيلِيَةَ. كَمَا يُشِيرُ الشَّنْتَرِينِيُّ إِلَى مَقْتَلِ ابْنِ نَغْرِيلَةَ اليَهُودِيِّ الذِي أَلَّبَ يَهُودَ غَرْنَاطَةَ ضِدَّ الإِسْلَامِ وَالمُسْلِمِينَ. وَذَا يُؤَكِّدُ -بِالضَّرُورَةِ- التَّوَاجُدَ اليَهُودِيَّ بَيْنَ أَظْهُرِ المُسْلِمِينَ، وَالتَّعَايُشَ مَعَ أَهْلِ الذِّمَّةِ عَلَى تُرَابِ الأَنْدَلُسِ، وَتَمَكِّنِهِمْ مِنْ شُؤُونِ الدَّوْلَةِ - فَضْلًا عَنْ وُجُودِ النَّصَارَى الإِسْبَانِ -؛ تَقْرِيرًا لِلمَبْدَأِ القُرْآنِيِّ:﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ - سُورَةُ البَقَرَةِ، 256.

وَفِيهِ إِثْبَاتُ السِّيَادَةِ الإِسْلَامِيَّةِ عَلَى كَافَّةِ الدِّيَانَاتِ المُتَوَاجِدَةِ فِي شِبْهِ الجَزِيرَةِ الإِيبِيرِيَّةِ، وَهُوَ إِنْفَاذٌ لِأَمْرِ اللهِ - جَلَّ وَعَلَا -:﴿هُوَ الذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالهُدَى وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ المُشْرِكُونَ﴾ - سُورَةُ التَّوْبَةِ، 33.

34. **هَيْكَلُ الدَّوْلَةِ الكَامِلُ وَالمُتَمَاسِكُ** اتَّسَمَتْ بِهِ الحَضَارَةُ الأَنْدَلُسِيَّةُ مُنْذُ النَّشْأَةِ؛ فَقَدْ ضَمَّتْ مُلُوكًا وَوُلَاةً وَوُزَرَاءَ وَعُلَمَاءَ وَفُقَهَاءَ وَأُدَبَاءَ وَشُعَرَاءَ وَقُضَاةً وَقَادَةً، وَلَقَدْ عَرَفَ الشَّنْتَرِينِيُّ بِمِئَةٍ وَخَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ شَخْصِيَّةً بَارِزَةً، وَأَلْحَقَ بِهِمْ نَحْوًا مِنْ ثَلَاثِينَ شَخْصِيَّةً مِنْ قُضَاةٍ وَوُزَرَاءَ وَأُدَبَاءَ وَكُتَّابٍ وَغَيْرِهِمْ فِي زَمَنٍ مَحْدُودٍ، وَإِنَّ كَثْرَةَ القَادَةِ وَالعُلَمَاءِ وَالفُقَهَاءِ وَالقُضَاةِ وَالوُزَرَاءِ فِي الدَّوْلَةِ دَلِيلُ الشَّكِيمَةِ وَقُوَّةِ البَأْسِ وَالهَيْمَنَةِ وَكَثْرَةِ الأَتْبَاعِ؛ فَمَتَى بَسَطَتِ الدَّوْلَةُ نُفُوذَهَا وَسَيْطَرَتَهَا، وَتَقَلَّدَتْ جَمِيعَ المَرَاكِزِ وَالمَفَاصِلِ المُهِمَّةِ فِي إِدَارَةِ شُؤُونِ الدَّوْلَةِ وَتَمَكَّنَتْ مِنْهَا وَلَمْ تَذَرْ ثَغْرَةً إِلَّا مَلَأَتْهَا؛ إِلَّا اسْتَقَرَّ أَمْرُهَا، وَاشْتَدَّ عُودُهَا، وَطَالَ عُمُرُهَا، وَعَظُمَ شَأْنُهَا، وَوَرَّثَهَا الهَيْبَةَ فِي وَجْهِ أَعْدَائِهَا وَمَنْ يَمْكُرُ بِهَا.

35. **تَقْلِيدُ ذَوِي الخِبْرَاتِ وَالدِّرَايَةِ وَالمِرَاسِ وَظَائِفَ الدَّوْلَةِ** فِي إِدَارَةِ الأَقَالِيمِ وَالمُدُنِ وَالجُيُوشِ وَشُؤُونِ الدَّوْلَةِ، وَإِعْطَاؤُهُمْ دَوْرًا رِيَادِيًّا، وَلَمْ تَتَّخِذِ الدَّوْلَةُ فِي حَقِّهِمْ إِجْرَاءَ التَّهْمِيشِ بِإِحَالَتِهِمْ إِلَى التَّقَاعُدِ، بَلْ تُقَدِّمُهُمْ عَلَى غَيْرِهِمْ؛ فَقَدْ تَقَلَّدَ بَعْضُهُمْ مَنْصِبَيْنِ فِي الدَّوْلَةِ، وَلُقِّبَ بِـ (ذِي الوِزَارَتَيْنِ)، مِنْهُمْ: أَبُو عَامِرِ بْنُ الفَرَجِ، وَأَبُو الوَلِيدِ بْنُ زَيْدُونٍ، وَأَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ هُودٍ.

36. **القِسْطُ أَسَاسُ المُلْكِ** فِي رَدِّ المَظَالِمِ إِلَى أَهْلِهَا وَتَحْقِيقِ المُسَاوَاةِ بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ وَالفُقَرَاءِ وَإِقَامَةِ العَدْلِ بَيْنَ المُسْلِمِينَ وَغَيْرِهِمْ فِي الحُقُوقِ وَالوَاجِبَاتِ تُجَاهَ سِيَاسَةِ الدَّوْلَةِ، وَهُوَ سِرُّ بَقَاءِ الحُكْمِ الإِسْلَامِيِّ وَامْتِدَادِهِ؛ فَالرَّاعِي يَسْتَمِيلُ قُلُوبَ الرَّعِيَّةِ بِتَوْفِيرِ الأَمْنِ وَالعَيْشِ الهَنِيءِ، فَيُخْلِصُ لَهُ أَبْنَاءُ قُطْرِهِ، وَيَحْظَى بِتَأْيِيدِهِمْ وَمَدْحِهِ وَالدُّعَاءِ لَهُ، وَطَاعَتِهِ وَعَدَمِ الخُرُوجِ عَلَيْهِ، وَالِاسْتِمَاتَةِ فِي الدِّفَاعِ عَنْهُ إِذَا عَدَتِ العَوَادِي؛ لِئَلَّا يَزُولَ سُلْطَانُ عَرْشِهِ، فَيَخْلُفَهُ مَنْ لَا تَجْتَمِعُ عَلَيْهِ الكَلِمَةُ! وَبِهَذَا وَصَفَ الشَّنْتَرِينِيُّ صَاحِبَ إِشْبِيلِيَةَ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ فِيهَا عَرِيبٌ يَأْلَفُهُ، وَهُوَ

– فِيهَا - غَرِيبٌ وَالوَحْشَةُ تَكْتَنِفُهُ، فَلَمَّا جَلَسَ إِلَيْهِ؛ خَطَفَ لُبَّهُ، وَكَأَنَّ عَيْنَهُ لَمْ تَرَ – قَطُّ - مِثْلَهُ، فَقَالَ:"إِلَى أَنْ طَلَعَ شِهَابُ سَعْدِهَا وَتَمْكِينِهَا، وَهَبَّتْ لَهَا رِيحُ دُنْيَاهَا وَدِينِهَا، وَنَفَخَ فِيهَا رُوحَ تَأْمِيلِهَا وَتَأْمِينِهَا، مَلِكُ أَمْلَاكِهَا.. فُلَانُ ثِمَالُ المَظْلُومِ، وَمَالُ السَّائِلِ وَالمَحْرُومِ، وَمُحْيِي العِلْمِ، وَمُرْبِعُ ذَوِيهِ وَحَامِلِيهِ، وَمُسْتَدْعِي التَّأْلِيفَاتِ الرَّائِقَةِ فِيهِ؛ جَعَلَ اللهُ الدَّهْرَ أَقْصَى أَيَّامِهِ"[39].

37. **المُدُنُ تَعْكِسُ الحَضَارَةَ**، وَقَدِ انْجَلَى أَثَرُهَا وَبَانَتْ رُسُومُهَا مِنْ خِلَالِ:

أَوَّلًا: تَصْرِيحُ ابْنِ بَسَّامٍ بِاسْمِ حَاضِرَةِ (قُرْطُبَةَ) فِي المُقَدِّمَةِ لِأَهَمِّيَّتِهَا، وَالتِي شَكَّلَتْ مَأْرِزَ الإِمَارَةِ زَمَنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الدَّاخِلِ، وَمَوْئِلَ الخِلَافَةِ زَمَنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ النَّاصِرِ، وَقَدْ جَعَلَ القِسْمَ الأَوَّلَ مِنَ "الذَّخِيرَةِ" مُخْتَصًّا بِأَعْيَانِ قُرْطُبَةَ؛ إِذْ بَكَرَتْ تُشَكِّلُ مَرْكَزَ القُوَّةِ وَالنُّفُوذِ لِأَهْلِ الأَنْدَلُس. ثُمَّ عَطَفَ مُصَرِّحًا بِاسْمِ حَاضِرَةِ (إِشْبِيلِيَةَ) التِي آضَتْ تُشَكِّلُ أَقْوَى مَمْلَكَةٍ مِنْ مَمَالِكِ عَصْرِ مُلُوكِ الطَّوَائِفِ حَيْثُ نُفُوذُ بَنِي عَبَّادٍ، وَهِيَ - مِنْ قَبْلُ - مَوْئِلٌ لِلْإِمَارَةِ الأُولَى بِرِئَاسَةِ عَبْدِ العَزِيزِ بنِ مُوسَى بنِ نُصَيْرٍ، إِبَّانَ الفَتْحِ الإِسْلَامِيِّ، وَتَنَاوَلَ الحَدِيثَ عَنْ أَعْيَانِهَا فِي القِسْمِ الثَّانِي مِنَ "الذَّخِيرَةِ" لِمَا لَهَا مِنْ أَهَمِّيَّةٍ.

ثَانِيًا: أَشْرَقَتِ الأَنْدَلُسُ بِأَسَامٍ مَشْرِقِيَّةٍ لِبَعْضِ المُدُنِ، كَإِطْلَاقِ (حِمْصَ) عَلَى إِشْبِيلِيَةَ؛ وَهَذَا يَعْنِي انْفِتَاحَ الْحَضَارَةِ الأَنْدَلُسِيَّةِ عَلَى الحَضَارَاتِ الأُخْرَى، وَتَقَبُّلَهَا لِثَقَافَةِ الآخَرِينَ وَالِاسْتِفَادَةِ مِنْهُمْ، وَعَدَمَ الانْغِلَاقِ وَالانْطِوَاءِ عَلَى الذَّاتِ، وَالمُسْلِمُونَ - وَإِنْ فَرَّقَتْهُمُ الأَصْقَاعُ وَالبِقَاعُ، وَحَالَتْ بَيْنَهُمُ البِحَارُ وَالقِفَارُ - تُظِلُّهُمْ سَمَاءٌ وَاحِدَةٌ، هِيَ سَمَاءُ الإِسْلَامِ !.

ثَالِثًا: قَالَ ابْنُ بَسَّامٍ فِي المُقَدِّمَةِ فِي مَعْرِضِ مَنْ سَيُتَرْجِمُ لَهُمْ:"وَذِكْرُ تَغَلُّبِ ابْنِ هُودٍ المُقْتَدِرِ عَلَى (دَانِيَةَ)"[40] - يَعْنِي صَاحِبَ سَرَقُسْطَةَ، وَكَانَ ذَلِكَ زَمَنَ مُلُوكِ الطَّوَائِفِ -، وَقَدْ حَازَتْ (دَانِيَةُ) مَوْقِعًا اسْتِرَاتِيجِيًّا مُهِمًّا آنَذَاكَ إِبَّانَ الفَتْحِ الإِسْلَامِيِّ عَلَى يَدِ عَبْدِ العَزِيزِ بنِ مُوسَى بنِ نُصَيْرٍ فِي عَهْدِ أَبِيهِ، وَهِيَ تَقَعُ فِي أَدْنَى شَرْقِ إِسْبَانِيَا عَلَى السَّاحِلِ، وَالتِي أَخْضَعَتْ لِسَيْطَرَتِهَا جُزُرَ البَلْيَارِ؛ فَفِيهَا مَوَانِئُ بَحْرِيَّةٌ وَمَرَافِئُ لِسُفُنِ الأُسْطُولِ الإِسْلَامِيِّ، وَتُشَكِّلُ خَطَّ الدِّفَاعِ الأَوَّلَ مِنْ كُلِّ عَدُوٍّ يَتَرَبَّصُ بِالْمُسْلِمِينَ؛ فَكَانَ قَمِنًا أَنْ يُومِئَ الشَّنْتَرِينِيُّ إِلَى ذِكْرِهَا.

38. **امْتِدَادُ سُلْطَانِ الحَضَارَةِ الأَنْدَلُسِيَّةِ**، وَنَشْرُ كِيَانِهَا فِي (شِبْهِ الجَزِيرَةِ الإِيبِيرِيَّةِ) - إِسْبَانِيَا وَالبُرْتُغَالِ حَالِيًّا - حَتَّى أَطْرَافِهَا؛ وَهَذَا مُؤَشِّرٌ عَلَى عِظَمِ تِلْكَ الحَضَارَةِ وَهَيْبَتِهَا، وَبَسْطِ نُفُوذِهَا - فَضْلًا عَنِ النَّشَاطِ الحَرْبِيِّ الذِي تَرْعَاهُ الدَّوْلَةُ فِي الفُتُوحَاتِ الإِسْلَامِيَّةِ أَوِ اسْتِرْدَادِ مَا انْحَسَرَ مِنْ سُلْطَانِهَا عَنْهَا -؛ إِذْ أَشَارَ فِي المُقَدِّمَةِ فِي القِسْمِ الرَّابِعِ مِنَ "الذَّخِيرَةِ" قَائِلًا:"وَتَلْخِيصُ التَّعْرِيفِ بِدَوْلَةِ ابْنِ أَبِي عَامِرٍ، مِنَ المَبْدَإِ إِلَى الآخِرِ"[41] – أَيْ: زَمَنَ الحَاجِبِ المَنْصُورِ، إِذْ بَلَغَ الفَتْحُ غَايَتَهُ -، وَأَمَارَةُ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ:

أَوَّلًا: ابْنُ بَسَّامٍ مِنْ شَنْتَرِينَ مِنْ أَرْضِ البُرْتُغَالِ، وَكَانَ يَقُولُ مُسْتَحْسِرًا عَلَى يَبَابِهَا:"وَقَدْ كُنَّا غُنِينَا هُنَالِكَ بِكَرَمِ الانْتِسَابِ عَنْ سُوءِ الاكْتِسَابِ"[42]. وَقَدْ نَسَبَ عَدَدًا مِمَّنْ تَرْجَمَ لَهُمْ أَنَّهُمْ مِنْ تِلْكَ الدِّيَارِ كَالأَدِيبِ أَبِي عُمَرَ بنِ كَوْثَرٍ الشَّنْتَرِينِيِّ وَغَيْرِهِ. كَذَا تَرْجَمَ لِلْأَدِيبِ أَبِي زَيْدِ بنِ مَقَانَا الأُشْبُونِيِّ - نِسْبَةً إِلَى أُشْبُونَةَ عَاصِمَةِ البُرْتُغَالِ، وَيُقَالُ: لِشْبُونَةُ -.

ثَانِيًا: نَسَبَ كَثِيرًا مِمَّنْ تَرْجَمَ لَهُمْ مِنَ العُلَمَاءِ وَالأُدَبَاءِ وَالوُلَاةِ إِلَى بِقَاعٍ شَتَّى فِي الأَنْدَلُسِ؛ إِشَارَةً إِلَى بُلُوغِ حَضَارَةِ الإِسْلَامِ إِلَيْهَا وَتَغَلْغُلِهَا فِيهَا - مِنْ أَقْصَاهَا إِلَى أَقْصَاهَا -؛ فَمِنْهُمُ التُّطِيلِيُّ وَالبَطَلْيَوْسِيُّ وَالمَالِقِيُّ وَالقُرْطُبِيُّ وَالسَّرَقُسْطِيُّ وَالإِشْبِيلِيُّ وَالمَرْسِيُّ وَالبَلَنْسِيُّ وَالشَّنْتَمَرِيُّ وَالدَّانِيُّ وَغَيْرُهُمْ.

ثَالِثًا: أَوْمَأَ ابْنُ بَسَّامٍ فِي المُقَدِّمَةِ أَنَّهُ سَيَتَحَدَّثُ عَنْ جُزْءٍ مَشْمُولٍ مَعَ المَنْظُومَةِ الحَضَارِيَّةِ الأَنْدَلُسِيَّةِ مِنْ شَمَالِ المَغْرِبِ – حَالِيًا - مِنَ القَارَّةِ الإِفْرِيقِيَّةِ[43]، فَقَالَ:"وَالخَبَرُ عَنْ فَتْحِ مَدِينَةِ سِبْتَةَ، وَالتَّعْرِيفُ بِأَوَّلِيَّةِ أَمِيرِهَا سَقُوتَ"[44]، وَأَخْبَرَ – أَيْضًا - أَنَّهُ سَيَتَنَاوَلُ فِي التَّرَاجِمِ ابْنَ القَابِلَةِ السَّبْتِيَّ.

رَابِعًا: تَرْجَمَ المُصَنِّفُ لِعَدَدٍ مِنَ العُلَمَاءِ وَالأُدَبَاءِ وَنَسَبَهُمْ إِلَى الجُزُرِ، مِنْهُمُ الأَدِيبُ أَبُو طَالِبٍ عَبْدُ الجَبَّارِ المَعْرُوفُ بِالمُتَنَبِّي مِنْ أَهْلِ جَزِيرَةِ (شُقْرٍ)، وَأَبُو مُحَمَّدِ بنُ حَمْدِيسٍ مِنْ (صِقِلِّيَةَ). وَهَذَا يَعْنِي أَنَّ بِسَاطَ الحَضَارَةِ قَدْ أَظَلَّ عَدَدًا مِنَ الجُزُرِ.

39. **إِشْرَاكُ المَرْأَةِ** فِي الجَانِبِ الإِبْدَاعِيِّ وَالثَّقَافِيِّ وَمَيَادِينِ الحَيَاةِ، وَإِبْرَازُ دَوْرِهَا، مِثْلُ الشَّاعِرَةِ وَلَّادَةَ بِنْتِ المُسْتَكْفِي صَاحِبَةِ المَجَالِسِ الأَدَبِيَّةِ التِي كَانَتْ تُعْقَدُ فِي قُرْطُبَةَ، فَقَدْ أَشَارَ الشَّنْتَرِينِيُّ - لَمَّا ذَكَرَ أَعْيَانَ أَهْلِ قُرْطُبَةَ - إِلَى أَنَّهُ سَيَتَحَدَّثُ عَنْهَا؛ فَقَالَ: "وَذُو الوِزَارَتَيْنِ أَبُو الوَلِيدِ بنُ زَيْدُون، وَإِمَارَةُ المُسْتَكْفِي، وَخَبَرُ وَلَّادَةَ"[45]. فَهُوَ بِذَلِكَ لَمْ يُغَيِّبْ دَوْرَهَا فِي بِنَاءِ الحَضَارَةِ؛ وَذَا يُؤَكِّدُ حَضَارِيَّةَ مُجْتَمَعِهَا.

40. **أَدَبُ الرِّحْلَاتِ** كَانَ حَاضِرًا غَيْرَ مُغَيَّبٍ عَنِ المَشْهَدِ الحَضَارِيِّ، الذِي تَتَفَاوَتُ فِيهِ الدَّوَافِعُ وَالغَايَاتُ، وَلَقَدْ أَسْفَرَ ابْنُ بَسَّامٍ عَنْهُ مِنْ غَيْرِ جَانِبٍ:

أَوَّلًا: كَانَ قَدْ قَسَّمَ "الذَّخِيرَةَ" أَرْبَعَةَ أَقْسَامٍ، قَالَ فِي الأَخِيرِ مِنْهَا:"وَالقِسْمُ الرَّابِعُ أَفْرَدْتُهُ لِمَنْ طَرَأَ عَلَى هَذِهِ الجَزِيرَةِ فِي المُدَّةِ المُؤَرَّخَةِ مِنْ أَدِيبٍ شَاعِرٍ، وَأَوَى إِلَى ظِلِّهَا مِنْ كَاتِبٍ مَاهِرٍ ... وَوَصَلْتُ بِهِمْ ذِكْرَ طَائِفَةٍ مِنْ مَشْهُورِي أَهْلِ تِلْكَ الآفَاقِ مِمَّنْ نَجَمَ فِي عَصْرِنَا بِإِفْرِيقِيَةَ وَالشَّامِ وَالعِرَاقِ"[46].

ثَانِيًا: فِرَارُهُ مِنْ شَنْتَرِينَ إِلَى إِشْبِيلِيَةَ – حِمْصَ -، وَوَصْفُهُ المَتَاعِبَ وَالصِّعَابَ فِي رِحْلَتِهِ:"وَحِينَ اشْتَدَّ الهَوْلُ هُنَالِكَ؛ اقْتَحَمْتُ بِمَنَ مَعِيَ المَسَالِكَ، عَلَى مَهَامِهَ تُكَذِّبُ فِيهَا العَيْنُ الأُذُنَ، وَتُسْتَشْعَرُ فِيهَا المِحَنُ"[47]، ثُمَّ وَصَفَ غُرْبَتَهُ، وَمُقَامَهُ فِيهَا سَنَوَاتٍ، وَقِلَّةَ اهْتِمَامِ أَهْلِهَا بِفُنُونِ

الأَدَبِ وَاهْتِمَامِهِمْ بِالدِّرْهَمِ وَالدِّينَارِ، وَخُلُوِّ البَلَدِ مِنَ القُدْوَاتِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ أَسْبَابِ الحَيَاةِ اليَائِسَةِ البَائِسَةِ، وَهُوَ ضَحْيَانُ إِلَى مُنْقِذٍ يُخَلِّصُهُ مِنْ ضَنَكِ العَيْشِ، حَتَّى مَقْدَمِ حَاكِمٍ عَدْلٍ مُحِبٍّ لِلْخَيْرِ وَالكَرَمِ وَالعَطْفِ عَلَى الفُقَرَاءِ - لَمْ يُفْصِحْ عَنِ اسْمِهِ -، بَعَثَ فِيهِ وَفِي النَّاسِ رُوحَ الحَيَاةِ، فَنَشَّطَ أَهْلَهَا لِلنَّفِيرِ وَالرِّبَاطِ عَلَى الثُّغُورِ، وَذَكَرَ جُلُوسَهُ إِلَيْهِ وَإِعْجَابَهُ بِـ"الذَّخِيرَةِ".

ثَالِثًا: تَرْجَمَ لِمَنْ كَتَبَ فِي أَدَبِ الرِّحْلَاتِ، وَمِنْ هَؤُلَاءِ الوَزِيرُ أَبُو عَامِرٍ أَحْمَدُ بنُ عَبْدِالملِكِ بنِ شُهَيْدٍ، صَاحِبُ رِسَالَةِ "التَّوَابِعِ وَالزَّوَابِعِ" فِي الرِّحْلَةِ الغَرَائِبِيَّةِ وَالعَجَائِبِيَّةِ إِلَى عَالَمِ الجِنِّ. وَكَذَا أَبُو عُبَيْدٍ البَكْرِيُّ الذِي جَالَ الأَنْدَلُسَ فِي رِحْلَاتٍ عَدِيدَةٍ، وَكَتَبَ عَنْ تَضَارِيسِهَا وَبَرِّهَا وَبَحْرِهَا وَجَغْرَافِيَّتِهَا وَطَبِيعَتِهَا فِي سِفْرِهِ الفَرِيدِ "المَسَالِكِ وَالمَمَالِكِ".

إِنَّ مَا قِيلَ هَهُنَا أَجْمَعُ - مِمَّا أَبْهَرَ العُقُولَ! - كَانَ فِي زَمَنٍ قَلُصَتْ فِيهِ رَايَاتُ الحَضَارَةِ عَنْ بَعْضِ قِلَاعِهَا وَقَصَبَاتِهَا، وَلَمْ تَكُنِ الأَنْدَلُسُ – وَقْتَئِذٍ - فِي أَوْجِ التَّقَدُّمِ وَبَسْطِ النُّفُوذِ كَمَا كَانَتْ زَمَنَ الخَلِيفَةِ النَّاصِرِ وَالحَكَمِ المُسْتَنْصِرِ وَالحَاجِبِ المَنْصُورِ! فَكَيْفَ لَوْ قُدِّرَ لِابْنِ بَسَّامٍ أَنْ يُمَخِّضَ اللهُ لَهُ السِّنِينَ؛ فَتَكُونَ زُبْدَةُ الحِقَبِ بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَمَامَ مُقْلَتَيْهِ؟! لَمَلَأَ أَسْفَارًا مِنْ عَجِيبِ مَا صَنَعُوهُ، وَفَرِيدِ مَا ابْتَدَعُوهُ! وَلَكِنْ حَسْبُنَا قَلَائِدُ مَجْدٍ تَلِيدٍ تُقْتَنَى وَعَنَاقِيدُ عِزٍّ تُجْتَنَى أَلْفَيْنَاهَا فِي عَصْرِهِ، إِذْ لَمْ تَكُنِ الرُّؤْيَةُ – أَلْبَتَّةَ - اسْتِقْصَاءَ المَظَاهِرِ وَالتَّجَلِّيَاتِ الحَضَارِيَّةِ التِي تَلَأْلَأَتْ كَالدُّرِّ المَنْثُورِ مُدَّةَ ثَمَانِيَةِ قُرُونٍ مُتَوَالِيَةٍ، وَإِنَّمَا مَا سُقْتُهُ قَدْ لَا يَبْلُغُ عُشْرَ مِعْشَارِ مَا قَدَّمُوهُ! إِذْ لَيْسَ الخَبَرُ كَالمُعَايَنَةِ، وَمَا خَفِيَ أَعْظَمُ وَأَعْظَمُ! وَعَلَيْهِ؛ فَـ"إِنَّ فِي التَّجْرِبَةِ الحَضَارِيَّةِ الأَنْدَلُسِيَّةِ دَلِيلًا سَاطِعًا عَلَى أَنَّ اعْتِمَادَ الوَسَائِلِ العَسْكَرِيَّةِ وَحْدَهَا لِبَسْطِ النُّفُوذِ وَفَرْضِ السَّيْطَرَةِ هِيَ سِيَاسَةٌ غَيْرُ نَاجِحَةٍ"[48]، وَإِنَّمَا كَانَ طُولُ المُكْثِ لِعَظِيمِ الرِّسَالَةِ التِي حَمَلُوهَا وَأَوْصَلُوهَا إِلَى تِلْكَ البِلَادِ، وَعِنْدَمَا تَخَلَّوْا عَنْهَا وَبَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْرًا وَ"تَفَرَّقُوا أَيْدِي سَبَا"[49]؛ سُلِبَتِ الخَيْرَاتُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ، وَأُذِيقُوا الذِّلَّةَ وَالهَوَانَ، حَتَّى وَكَأَنَّ حَضَارَتَهُمُ المَجِيدَةَ كَانَتْ حُلُمًا، ثُمَّ تَبَدَّدَ وَتَلَاشَى!

The Connotations and Cultural Dimensions in the Introduction of Ibn Bassam Al-Shantrini's *Al-Thakhira*

Mohammed Faisal, *Department of Arabic Language, University of Jordan, Amman, Jordan.*

Abstract

Andalusia witnessed progress in the sciences, arts, urbanism, literature, economic and political aspects. This progress prompted many scholars and writers to mention the merits of this culture, and celebrate it for successive generations through their poems and blogs so this becomes a witness on the work of the fathers and grandfathers and this brings pride of those ancient virtues. The book *Al-Thakhira* was a good example on embodying the meanings and dimensions of Andalusian culture and civilization through what the book has from the translations of the great people in Andalusia. If one just looks at the introduction of this book, one feels proud of those golden generations. My study deals only with the introduction of this book and what it cantains from cultural connotations which is a necessary topic to write about because it gives an idea about that historical golden period, which Muslim contributed to.

Keywords: Al-Shentari, Al-Thakhira, Connotations and civilizational dimensions, Andalusian literature, The strange horizon.

الهوامش:

(1) الشَّنْتَرِينِيُّ، أَبُو الحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ بَسَّامٍ (ت: 542هـ)، **الذَّخِيرَةُ فِي مَحَاسِنِ أَهْلِ الجَزِيرَةِ**، تَحْقِيقُ إِحْسَان عَبَّاس، دَارُ الثَّقَافَةِ، بَيْرُوتُ - لبنانْ، 1399هـ - 1979م، (1 / 14).

(2) المَصْدَرُ السَّابِقُ، (1 / 13).

(3) المَصْدَرُ السَّابِقُ، (1 / 12).

(4) ابْنُ سَعِيدٍ، عَلِيُّ بنُ مُوسَى المَغْرِبِيُّ (ت: 685هـ)، **المُغْرِبُ فِي حُلَى المَغْرِبِ**، حَقَّقَهُ وَعَلَّقَ عَلَيْهِ شَوْقِي ضَيْف، دَارُ المعَارِفِ، ط3، القَاهِرَةُ - مِصْرُ، (1 / 417 - 418).

(5) المَصْدَرُ السَّابِقُ، (1 / 418).

(6) التِّلِمْسَانِيُّ، أَبُو العَبَّاسِ أَحْمَدُ بنُ مُحَمَّدٍ المَقَّرِيُّ (ت: 1041هـ)، **نَفْحُ الطِّيبِ مِنْ غُصْنِ الأَنْدَلُسِ الرَّطِيبِ**، حَقَّقَهُ إِحْسَان عَبَّاس، دَارُ صَادِرٍ، ط1، بَيْرُوتُ - لُبْنَانْ، 1968م، (3 / 458).

(7) الزِّرِكْلِيُّ، خَيْرُ الدِّينِ (ت: 1395هـ)، **الأَعْلَامُ**، دَارُ العِلْمِ لِلْمَلَايِينِ، ط6، بَيْرُوتُ - لُبْنَانْ، 1984م، (4 / 123).

(8) المُرَّاكُشِيُّ، عَبْدُالوَاحِدِ (ت: 647هـ)، **المُعْجِبُ فِي تَلْخِيصِ أَخْبَارِ المَغْرِبِ**، تَحْقِيقُ مُحَمَّد سَعِيد العُرْيَان، القَاهِرَةُ - مِصْرُ، 1963م، ص 30 - 31.

(9) الذَّخِيرَةُ، (1 / 19).

(10) نَفْحُ الطِّيبِ، (3 / 458).

(11) الذَّخِيرَةُ، (1 / 21 - 22).

(12) رَوَاهُ البُخَارِيُّ. اُنْظُرْ: البُخَارِيُّ، أَبُو عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدُ بنُ إِسْمَاعِيلَ الجُعْفِيُّ (ت: 256هـ)، **صَحِيحُ البُخَارِيِّ**، تَحْقِيقُ مُحَمَّد زُهَيْر بن نَاصِر النَّاصِر، دَارُ طَوْقِ النَّجَاةِ، ط1، بَيْرُوتُ - لُبْنَانُ، 1422هـ، (7 / 35)، كِتَابُ النِّكَاحِ، بَابُ: المُتَشَبِّعِ بِمَا لَمْ يَنَلْ وَمَا يُنْهَى مِن افْتِخَارِ الضَّرَّةِ، رَقْمُ الحَدِيثِ: 23489.

(13) الذَّخِيرَةُ، (1 / 18 - 19).

(14) المَصْدَرُ السَّابِقُ، (1 / 18).

(15) المَصْدَرُ السَّابِقُ، (1 / 16).

(16) المَصْدَرُ السَّابِقُ، (1 / 11).

(17) المَصْدَرُ السَّابِقُ، (1 / 17).

(18) يَاغِي، هَاشِم عَبْد الوَهَّابِ وَآخَرُونَ، **تَارِيخُ الأَدَبِ العَرَبِيِّ**، جَامِعَةُ القُدْسِ المفْتُوحَةِ، ط1، عَمَّانُ - الأُرْدُنُ، 1995م، ص304.

(19) الذَّخِيرَةُ، (1 / 22).

(20) ذُو النُّونِ المِصْرِيُّ، وَقَالَهُ عَلَى بَحْرِ (الوَافِرِ). اُنْظُرْ: اليَافِعِيُّ، عَفِيـفُ الدِّينِ أَبُو السَّعَادَاتِ عَبْدُ اللهِ بنُ أَسْعَدَ اليَمَنِيُّ (ت: 768هـ)، **رَوْضُ الرَّيَاحِينِ فِي حَكَايَا الصَّالِحِينَ**، تَحْقِيقُ مُحَمَّد عِزَّت، المَكْتَبَةُ التَّوْفِيقِيَّةُ، القَاهِرَةُ - مصرُ، ص38. وَالشَّاعِرُ لَيْسَ لَهُ دِيوَانٌ، وَإِنَّمَا لَهُ أَشْعَارٌ مُفَرَّقَةٌ فِي بُطُونِ الكُتُبِ.

(21) الذَّخِيرَةُ، (1 / 18).

(22) عُبَيْدُ اللهِ بنُ أَحْمَدَ الصَّيْرَفِيُّ، قَالَهُ عَلَى بَحْرِ (الرَّجَزِ). اُنْظُرْ: البَغْدَادِيُّ، أَبُو بَكْرٍ أَحْمَدُ بنُ عَلِيٍّ الخَطِيبُ (ت: 463هـ)، **الجَامِعُ لِأَخْلَاقِ الرَّاوِي وَآدَابِ السَّامِعِ**، تَحْقِيقُ د. مَحْمُود الطَّحَّان، مَكْتَبَةُ المَعَارِفِ، الرِّيَاضُ - السُّعُودِيَّةُ، 1403هـ - 1983م، (2 / 251). وَالشَّاعِرُ لَيْسَ لَهُ دِيوَانٌ، وَإِنَّمَا لَهُ أَشْعَارٌ مُفَرَّقَةٌ فِي بُطُونِ الكُتُبِ.

(23) الذَّخِيرَةُ، (1 / 12).

(24) المَصْدَرُ السَّابِقُ، (1 / 14).

(25) المَصْدَرُ السَّابِقُ، (1 / 12). وَقَتَادَةُ هُوَ أَبُو الخَطَّابِ بنُ دِعَامَةَ بنِ قَتَادَةَ السَّدُوسِيُّ البَصْرِيُّ، تَابِعِيٌّ، رَوَى عَنْ أَنَس بنِ مَالِكٍ وَعَنِ الحَسَنِ البَصْرِيِّ وَسَعِيدِ بنِ المُسَيَّبِ وَغَيْرِهِمْ، وَرَوَى عَنْهُ اللَّيْثُ بنُ سَعْدٍ وَالأَوْزَاعِيُّ وَحَمَّادُ بنُ سَلَمَةَ وَغَيْرُهُمْ. قَالَ أَبُو حَاتِمٍ: "سَمِعْتُ أَحْمَدَ بنَ حَنْبَلٍ، وَذُكِرَ قَتَادَةُ، فَأَطْنَبَ

فِي ذِكْرِهِ، فَجَعَلَ يَنْشُرُ مِنْ عِلْمِهِ وَفِقْهِهِ وَمَعْرِفَتِهِ بِالِاخْتِلَافِ وَالتَّفْسِيرِ، وَوَصَفَهُ **بِالحِفْظِ** وَالفِقْهِ، وَقَالَ:"قَلَّ مَا تَجِدُ مَنْ يَتَقَدَّمُهُ، أَمَّا المِثْلُ؛ فَلَعَلَّ" – بِتَصَرُّفٍ -. انْظُرْ: العَسْقَلَانِيُّ، أَبُو الفَضْلِ أَحْمَدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ حَجَرٍ الشَّافِعِيُّ (ت: 852هـ)، **تَهْذِيبُ التَّهْذِيبِ**، عِنَايَةُ إِبْرَاهِيمَ الزَّنْبَقِ وَعَادِلِ مُرْشِدٍ، مُؤَسَّسَةُ الرِّسَالَةِ، ط1، بَيْرُوتُ - لُبْنَانُ، 1421هـ - 2001م، (3 / 428 - 429).

(26) المَصْدَرُ السَّابِقُ، (1 / 17).

(27) المَصْدَرُ السَّابِقُ، (1 / 17).

(28) المَصْدَرُ السَّابِقُ، (1 / 22).

(29) المَصْدَرُ السَّابِقُ، (1 / 19).

(30) المَصْدَرُ السَّابِقُ، (1 / 19).

(31) نَفْحُ الطِّيبِ، (3 / 191).

(32) الذَّخِيرَةُ، (1 / 21).

(33) المَصْدَرُ السَّابِقُ، (1 / 29).

(34) الفَيْرُوزْآبَادِيُّ، مَجْدُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ يَعْقُوبَ (ت: 817هـ)، **القَامُوسُ المُحِيطُ**، ضَبْطُ وَتَوْثِيقُ يُوسُفَ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ البِقَاعِيِّ، دَارُ الفِكْرِ، بَيْرُوتُ - لُبْنَانُ، 1415هـ - 1995م، مَادَّةُ (ط ب ب).

(35) الذَّخِيرَةُ، (1 / 11).

(36) المَصْدَرُ السَّابِقُ، (1 / 24).

(37) المَصْدَرُ السَّابِقُ، (1 / 25).

(38) رَوَاهُ أَحْمَدُ. انْظُرْ: الشَّيْبَانِيُّ، أَبُو عَبْدِ اللهِ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ حَنْبَلٍ (ت: 241هـ)، **مُسْنَدُ الإِمَامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ**، تَحْقِيقُ شُعَيْبٍ الأَرْنَاؤُوطِ وَآخَرُونَ، مُؤَسَّسَةُ الرِّسَالَةِ، ط1، بَيْرُوتُ - لُبْنَانُ، 1421هـ - 2001م، (38 / 474)، رَقْمُ الحَدِيثِ: 23489. وَتَتِمَّةُ نَصِّ الحَدِيثِ المُقْتَبَسِ:"أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى".

(39) الذَّخِيرَةُ، (1 / 20).

(40) المَصْدَرُ السَّابِقُ، (1 / 30).

(41) المَصْدَرُ السَّابِقُ، (1 / 30).

(42) المَصْدَرُ السَّابِقُ، (1 / 19).

(43) كَذَا بِكَسْرِ الهَمْزِ وَتَخْفِيفِ اليَاءِ، وَهِيَ "أَرْضٌ وَاسِعَةٌ قُبَالَةَ الأَنْدَلُسِ". انْظُرْ: القَامُوسَ المُحِيطَ، مَادَّةَ (ف ر ق).

(44) الذَّخِيرَةُ، (1 / 26).

(45) المَصْدَرُ السَّابِقُ، (1 / 23).

(46) المَصْدَرُ السَّابِقُ، (1 / 29 - 30).

(47) المَصْدَرُ السَّابِقُ، (1 / 19).

(48) جرَّار، صَلَاح، **زَمَانُ الوَصْلِ: دِرَاسَاتٌ فِي التَّفَاعُلِ الحَضَارِيِّ وَالثَّقَافِيِّ الأَنْدَلُسِيِّ**، المُؤَسَّسَةُ العَرَبِيَّةُ لِلدِّرَاسَاتِ وَالنَّشْرِ، ط1، بَيْرُوتُ - لُبْنَانُ، 2004م، ص 6.

(49) "بَنَوْهُ عَلَى السُّكُونِ، وَلَيْسَ بِتَخْفِيفٍ عَنْ (سَبَإٍ)، وَإِنَّمَا هُوَ بَدَلٌ. ضُرِبَ المَثَلُ بِهِمْ؛ لِأَنَّهُ لَمَّا غَرِقَ مَكَانُهُمْ، وَذَهَبَتْ جَنَّاتُهُمْ؛ تَبَدَّدُوا فِي البِلَادِ". انْظُرْ: القَامُوسَ المُحِيطَ، مَادَّة (س ب أ).

المَصَادِرُ وَالمَرَاجِعُ:

القُرْآنُ الكَرِيمُ.

البُخَارِيُّ، أَبُو عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدُ بنُ إِسْمَاعِيلَ الجُعْفِيُّ (ت: 256هـ)، (1422هـ)، **صَحِيحُ البُخَارِيِّ**، تَحْقِيقُ مُحَمَّد زُهَيْر بن نَاصِرٍ النَّاصِرِ، دَارُ طَوْقِ النَّجَاةِ، ط1، بَيْرُوتُ - لُبْنَانُ.

البَغْدَادِيُّ، أَبُو بَكْرٍ أَحْمَدُ بنُ عَلِيٍّ الخَطِيبُ (ت: 463هـ)، (1403هـ - 1983م)، **الجَامِعُ لِأَخْلَاقِ الرَّاوِي وَآدَابِ السَّامِعِ**، تَحْقِيقُ د. مَحْمُود الطَّحَّان، مَكْتَبَةُ المَعَارِفِ، الرِّيَاضُ - السُّعُودِيَّةُ.

التِّلِمْسَانِيُّ، أَبُو العَبَّاسِ أَحْمَدُ بنُ مُحَمَّدٍ المَقَّرِيُّ (ت: 1041هـ)، **(**1968م)، **نَفْحُ الطِّيبِ مِنْ غُصْنِ الأَنْدَلُسِ الرَّطِيبِ**، حَقَّقَهُ إِحْسَان عَبَّاس، دَارُ صَادِرٍ، ط1، بَيْرُوتُ - لُبْنَانُ.

جَرَّار، صَلَاح، (2004م)، **زَمَانُ الوَصْلِ: دِرَاسَاتٌ فِي التَّفَاعُلِ الحَضَارِيِّ وَالثَّقَافِيِّ الأَنْدَلُسِيِّ**، المُؤَسَّسَةُ العَرَبِيَّةُ لِلدِّرَاسَاتِ وَالنَّشْرِ، ط1، بَيْرُوتُ - لُبْنَانُ.

الزِّرِكْلِيُّ، خَيْرُ الدِّينِ (ت: 1395هـ)، (1984م)، **الأَعْلَامُ**، دَارُ العِلْمِ لِلْمَلَايِينِ، ط6، بَيْرُوتُ - لُبْنَانُ.

ابْنُ سَعِيدٍ، عَلِيُّ بنُ مُوسَى المَغْرِبِيُّ (ت: 685هـ)، (د.ت)، **المُغْرِبُ فِي حُلَى المَغْرِبِ**، حَقَّقَهُ وَعَلَّقَ عَلَيْهِ شَوْقِي ضَيْف، دَارُ المَعَارِفِ، ط3، القَاهِرَةُ - مِصْرُ.

الشَّنْتَرِينِيُّ، أَبُو الحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ بَسَّامٍ (ت: 542هـ)، (1399هـ - 1979م)، **الذَّخِيرَةُ فِي مَحَاسِنِ أَهْلِ الجَزِيرَةِ**، تَحْقِيقُ إِحْسَان عَبَّاس، دَارُ الثَّقَافَةِ، بَيْرُوتُ - لبنانُ.

الشَّيْبَانِيُّ، أَبُو عَبْدِ اللهِ أَحْمَدُ بنُ مُحَمَّدِ بنِ حَنْبَلٍ (ت: 241هـ)، **(**1421هـ - 2001م)، **مُسْنَدُ الإِمَامِ أَحْمَدَ بنِ حَنْبَلٍ**، تَحْقِيقُ شُعَيْبٍ الأَرْنَاؤُوطِ وَآخَرُونَ، مُؤَسَّسَةُ الرِّسَالَةِ، ط1، بَيْرُوتُ - لُبْنَانُ.

العَسْقَلَانِيُّ، أَبُو الفَضْلِ أَحْمَدُ بنُ عَلِيّ بنِ حَجَرٍ الشَّافِعِيُّ (ت: 852هـ)، (1421هـ - 2001م)، **تَهْذِيبَ التَّهْذِيبِ**، عِنَايَةُ إِبْرَاهِيمَ الزَّنْبَقِ وَعَادِل مُرْشِد، مُؤَسَّسَةُ الرِّسَالَةِ، ط1، بَيْرُوتُ - لُبْنَانُ.

الفَيْرُوزْآبَادِيُّ، مَجْدُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بنُ يَعْقُوبَ (ت: 817هـ)، (1415هـ - 1995م)، **القَامُوسُ المُحِيطُ**، ضَبْطُ وَتَوْثِيقُ يُوسُفَ مُحَمَّد البِقَاعِيِّ، دَارُ الفِكْرِ، بَيْرُوتُ - لُبْنَانُ.

المُرَّاكُشِيُّ، عَبْدُ الوَاحِدِ (ت: 647هـ)، (1963م)، **المُعْجِبُ فِي تَلْخِيصِ أَخْبَارِ المَغْرِبِ**، تَحْقِيقُ مُحَمَّد سَعِيد العُرْيَان، القَاهِرَةُ - مِصْرُ.

يَاغِي، هَاشِم عَبْد الوَهَّابِ وَآخَرُونَ، (1995م)، **تَارِيخُ الأَدَبِ العَرَبِيِّ**، جَامِعَةُ القُدْسِ المفْتُوحَةِ، ط1، عَمَّانُ - الأُرْدُنُّ.

اليَافِعِيُّ، عَفِيفُ الدِّينِ أَبُو السَّعَادَاتِ عَبْدُ اللهِ بنُ أَسْعَدَ اليَمَنِيُّ (ت: 768هـ)، (د.ت)، **رَوْضُ الرَّيَاحِينِ فِي حَكَايَا الصَّالِحِينَ**، تَحْقِيقُ مُحَمَّد عِزَّت، المَكْتَبَةُ التَّوْفِيقِيَّةُ، القَاهِرَةُ - مصرُ.